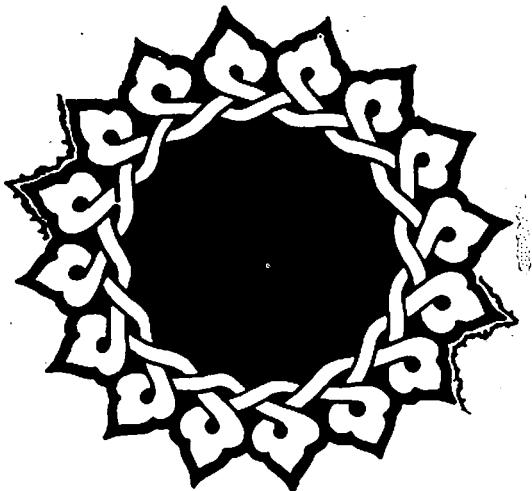


البعثة الإسلامية

المنهج والشروع

وحيد الدين خان
ترجمة محسن عثمان الندوى
مراجعة د. عبد الحليم عويس



وحيد الدين خان

الطبعة الأولى

قضية البعث الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥ - ١٩٨٤ م

قضية
البعث الإسلامي
المنهج والشروط

وحيد الدين خان

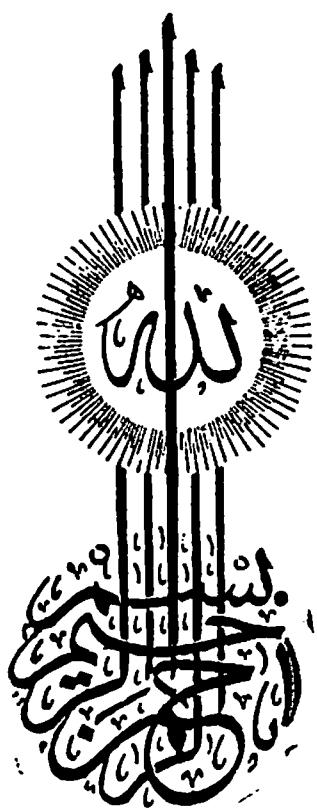
ترجمة
د. عبد الحليم عويس
مُحَمَّد عثمان الندوى

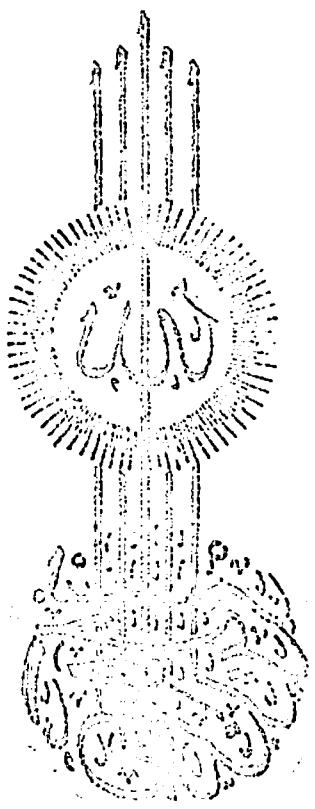
دار الصحوة للنشر والتوزيع
الناشر
تونس - تونس
الطبعة الأولى ٢٠١٣

مطبعة دار التأليف

٨ و ٩ شارع يعقوب بالمالية

٢١٨٤٥ تليفون





مقدمة

بقلم الدكتور عبد الحليم عويس

هذه هي الترجمة العربية لكتاب «إحياء الإسلام في المنظور القريب» للмыслقي الإسلامي الهندي الكبير وحيد الدين خان .. الذي عرفه قراء العربية من خلال كتبه الكثيرة التي يقف في قمتها «الإسلام يتحدى» ، و«الدين في مواجهة العلم» .

وعندما أوكل إلى العلامة الكبير «وحيد الدين خان» مراجعة الكتاب ، وفوضني في نشره .. رأيت أن الإسم الذي اختاره الأخ المترجم قد يجد بعض الاعتراضات ، من حيث إن الإسلام في غير حاجة إلى (إحياء) وإنما الذي يحتاج إلى هذا (الإحياء) هم المسلمون .. أو هي (علوم الدين) وطراق عرضه ، وليس الإسلام نفسه .. فدين الله (الإسلام) – كما وصفه أحد المستشرقين – (غض طرى كان عهده بالوجود (أمس) وتخلاصاً من مثل هذا الاعتراض رأيت تسميته «قضية البعث الإسلامي : النجاح والشروط» مؤكداً أن هذه التسمية تتمتع بالدقة نفسها التي تتمتع بها التسمية السابقة ، وهي تعبر صحيحاً تماماً عن (قضية هذا الكتاب) !!

وقد جرت العادة عند ترجمة الكتب أن يعرف – في التقديم – بمؤلفتها لكنني أجد أن العلامة «وحيد الدين خان» ، قد تجاوز بالنسبة للقاريء العربي – هذا الأمر .. وبالتالي ، فأنا أسمح لنفسي بتجاوزه .. وأما هذا الكتاب فهو (شيء جديد) بكل معانٍ الجذّابة بالنسبة للقاريء العربي .. ولعله سيخالف – في جملته – المسار الذي درج معظم

العاملين للإسلام على السير عليه .. ومن هنا فأننا أتوقع أن يختلف معه كثيرون .. لكن الجدير بالتنويه هنا أنه في عالم (الفكر الإسلامي) ثمة مجال للصواب والخطأ .. والمهم أن تكون عندنا الجرأة لنقرأ الآخرين ، ونحاورهم ثم نأخذ ما نأخذ ، وندع ما ندع .. وليسح لـ القارئ الكريم – وأننا رجل وثيق الصلة بالعمل الإسلامي منذ عشرين سنة أو أكثر – أن أصارحه بأن ما ورد في هذا الكتاب جدير بأن نضعه موضع الاعتبار والاحترام ، وأن نومن بأن (قضية هذا الكتاب) صحيحة إلى حد كبير ، حتى وإن اختلفنا مع المؤلف في بعض الجزئيات وصور التطبيق .. وأكيدنا أننا لانعتقد أن كلام المؤلف لا يمكن أن يغمس الجهاد حقه ، كما أنه لا يمكن أن يجعل الدعوة تقف – داعماً – عند المستوى الفردي .. وفي ضوء احترام هذين العنصرين أؤكد أن تجربتنا في التاريخ تويد صدق المنهج الذي سلكه المؤلف ، كما أن تجربتنا المعاشرة تويد ذلك .

ومن ناحية المبدأ يجب علينا جميعاً الإفاداة من آراء الآخرين حتى ولو تركنا بعض تصوّرائهم الفرعية .. ومن ثم يجب علينا أن نأخذ (٨٠٪) على الأقل – من وجهة نظري – مما انتهى إليه العلامة وحيد الدين خان ، في دراسته هذه الممتعة حول (قضية البعث الإسلامي – المنهج والشروط) مقدرين – في الوقت نفسه – للعمل الجماعي الواضح المسلح ، وللجهاد في ظروفه المقتضية له دور هما !! ..

لأنني لن أسمح لنفسي باستعراض قضايا الكتاب المختلفة التي تدور حول قضيته الأساسية .. كما أنني لن أستعرض فصول الكتاب بالصورة التقليدية . ولنما أكتفي بهذه اللمحـة العابرة حول اهتمـالـات الإثارة التي أتوقعها لهذا الكتاب .. ويعلم الله أنـي قد سـمعت لنفسـي بأكـثرـ مما يـسمـحـ بهـ عـادةـ

(للمراتجع) حتى أفسح مجالاً للتعاون السمع ، والتبادل الكريم للأراء ،
ولا أترك حبة الحنطة ترفض مجرد بعض القشور المثنة العالقة بها .

ولعل أخي الأستاذ « على عبد المحسن جبر » الذي قدم لي بعض العون
واستحق مني الشكر .. يشهد بهذا العبء الذي تحملته عن طوعانية ، اعتقاداً
على ثقة متبادلة تجمعني بالعلامة « وحيد الدين خان » ..
ولأنه جلد مسروء لمعابسي هذا الكتاب فترة طويلة خلال المراجعة ..
لقد كانت بحق رحلة مضنية .. لكنني تعلمت منها الكثير .. وألجديد !!

دكتور عبد الحليم عزيز

توطنة

أُولى في منطقة جبلية قرب نairobi بـافريقيا الوسطى تدعى بـ « كيغالي » Kigali - تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة - أقيم مركز إسلامي كبير يسمى بالفرنسية Le centre Cultural Islamique (المركز الثقافي الإسلامي) حيث تقرر عقد مؤتمر للشباب العرب الشققين في سنة ١٩٨١ وكانت مدعواً لذلك الاجتماع بعية إلقاء عدة محاضرات حول الدعوة الإسلامية وإحياء الإسلام.

وهذا الكتاب هو باكورة المحاضرات التي أعددتها لذلك الاجتماع الذي أُجل ولم يقوّض لي أن أحضره - وتدور هذه المحاضرات - رغم تكرار بعض الأفكار - حول محور واحد، هو أن البعث الإسلامي الجديد يقتضي منا الآن (العقل المفكر) و (التخطيط الصائب) و (العمل الجاد) وليس الأعمال التافهة ولا مجرد الآمال العريضة والأمنى الفارغة .

لقد أسكن النبي إبراهيم عليه السلام (١٩٨٥ - ٢١٤٠ ق. م) ذريته في الحجاز ، ولما شرع إبراهيم بيني الكعبة ، دعا ربّه قائلاً : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (البقرة : ١٣٩) .

ولقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً ، وقبل الله منه هذا الدعاء جملة وتفصيلاً . ولكن كما يعرف الجميع فإن النبي العربي قد ظهر بعد ألفين وخمسين سنة ، أي خلال القرن السادس الميلادي ، وهذا خير دليل

(١) لاندرى من ابن للمؤلف الفاضل هذا التحديد (!!) المرجع !!

على أنَّ الله لا يغير النظام الكوني ولا يحدث أمراً بالصدفة، بل إن من سنته سبحانه أن يحول إرادته إلى الواقع خلال أوضاع سائرة سيراً طبيعياً ، وليس من خلال الطلاسم وخارق العادات – فعلى الرغم من قبول الله دعاء إبراهيم فإن النبي العربي محمدأ لم يظهر إلا عندما بلغت الأحوال في سيرها مرحلة يتحتم فيها ظهوره كخاتم للتبين عليهم الصلاة والسلام .

إن الإسلام يحتاج لكي يقوم بدوره من جديد إلى الالتزام بالحكمة الربانية ، وإلى الإيمان بالمستقبل الوضاء للإسلام ، لكي نذر بذورنا في الحال ، ونخون مؤهلوه بسلاح الصبر الذي يشبه صبر غارس « الحور » ليصبح شجرآ قائماً صليباً في مدة مائة سنة .

إن هذا يتطلب منا رحابة صدر لتشاؤ دعوتنا مثل الأزهار والرياحين للأصدقاء والخصوم ولكن ترهج هذه الدعوة مثل الشمس المطلة على كل مرتفع ومنخفض.

هذا وقد تحقق دعاء نبي الله إبراهيم ، مع مراعاة جميع الحقائق الكونية والتاريخية ، فكيف تتوقع أن تتكلل جهودنا بالنجاح المماجيء بدون مراعاة الحقائق الموضوعية في هذه الدنيا .. كلاماً فإن الظل لن يستقيم ما دام العود معوجاً ..

مستويات المعرفة

إن نظام الأرض والسموات نظام عجيب تحار فيه العقول ، وإذا ذكر فيه باحث فعل أي شيء يحصل ؟ إنه سيحصل على أرقام وإحصاءات عجيبة ؟ فإن قطر الأرض (٣٥ ألف ميل) وحجم الشمس يزيد اثنين عشرة ألف مرة (١٢٠٠) عن الأرض . والمسافة بين الأرض والشمس ثلاثون مائة ألف ميل وتسعون مليوناً ، والأرض تدور على محورها بسرعة ألف ميل في كل ساعة .

وهذه هي الأرقام التي يحصل عليها العلماء بدراسة الكون والعالم . ولكن عندما ينظر المؤمن إلى هذا الكون فإن نظرته هذه تدله على الحقيقة العليا التي ترتفع فوق كل الأرقام وتنظم حركتها ، فقد ورد في القرآن :

« إن في خلق السموات والأرضن واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الآلباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك هقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزiate و ما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنبنا وكفر عنا سيئاتنا و توفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيمة إنك لا تختلف الميعاد » (آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤) .
لقد نظر العالم الطبيعي أو الفلكي إلى الكون ونظر المؤمن إلى الكون .

فاما العالم فقد نظر بنظرة علمية بينما نظر المؤمن بنظرة إيمانية .. إن هذا الفارق بين المشاهدين يشكل السبب الحقيقي في الفروق بين نتائج المشاهدة لكتلهما فمن نظر إلى الكون بنظرة علمية بحثة فإنه لا يجد إلا أرقاماً وأعداداً تردد وتحمُّضي ، ومن نظر إلى الكون بنظرة إيمانية فإن الله يتجلّى له في هذا الكون ؛ إنه يرى في كل شيء آية من آيات الله ، وإنه يرى أن كل شيء يجري في الكون إنما يجري بحكمة من الله وتقديره ، وإنه يرى وراء أستار هذا الكون (الجنة والجحيم) .. إنه ينال غذاء إيمانياً لروحه ، ويستكشف سرّ هذا الكون وهدفه فيقترب من الله ويزداد إيماناً به !! .. !!

ويتجلى لنا من هذا أن للمعرفة مستويين : مستوى ظاهرياً ومستوى باطنياً ، وأن الاختلاف بين هذين المستويين يوجد في كل شيء ، وهذا ما يتبته لنا القرآن والسنة الصحيحة ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حدم مطلع) (سراج السنة) .

(المطلع) هو موضع الاطلاع من المرتفع إلى المتحدر ، فإنك إذا قمت على أرض مستوية فلا ترى إلا ما كان قريباً منك ، أما إذا قمت على هضبة من الأرض فترى ما يكون على مسافة بعيدة أيضاً .

ولذلك فهناك منهجان للاستفادة من القرآن أو مستوىان لفهم القرآن : مستوى المدلول الظاهري الذي يستطيع أن يفهمه كل من يقرأ القرآن ، ومستوى المدلول الآخر العميق الذي لا يناله إلا من تفكّر فيه وتدبره . فالمستوى المعرف الظاهري للقرآن هو أن نقف على معانٍ ظاهر الكلمات ونأخذ مدلولها ، ولا نعمل النظر في معانٍها العميقة .. وأما فهم القرآن على المستوى الداخلي فهو أن نصل بال بصيرة النفاذه إلى دلالات الآيات العميقه ولا نقتصر على السطور بل نقرأ ما يمكن بين السطور أيضاً .

ونأتي ببعض الأمثلين في هذا السياق لبيان الأمر :

١- لقد ورد في القرآن قول الله تعالى : « أَيُوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخْلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الْمُثْرَاتِ وَأَصَابِهِ الْكَبْرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يَبْيَنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِعِلْمِكُمْ تَفَكِّرُونَ ». (البقرة : ٢٦٦) .

فقد تلا الخليفة الثاني عمر الفاروق - رضي الله عنه - هذه الآية في جلسة وقال : إن هذه الآية أرقتنى طوال الليلة، ثم استوضح الناس وسأل عن مدلول هذه الآية ، فقال - بعض الناس : إن هذه الآية تذكر حدائق الأعتاب والتخييل ، وتذكر أنها نعمة من نعم الله وأن الله يعطيها من يشاء أو يتزلف مصابيح الإعصار والطوفان عليها متى يشاء - فكان هذه الآيات لم تكن لها إلا هذه المعانى التي أدركها البسطاء السرج من الناس .

لكن عبد الله بن عباس الذى كان فى مطلع شبابه وقتذاك فقد قال : إن في هذه الآية تمثيلاً للعمل الإنساني . فسأل عمر - رضي الله عنه - وأى عمل ؟ . . فقال : هذا مثال لشخص غنى آتاه الله ما لا يُمْ بعث سبحانه إليه شيطاناً لامتحانه ، فارتكب الآثام حتى أحبطت أعماله .. فقال عمر - رضي الله عنه : صلقت . ثم استطرد في شرح الآية فقال : إنه قد عنى بها العمل ، لأن ابن آدم أفقر ما يكون إلى جنته إذا كبر سنه وكثُرت عياله ، وابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم القيمة . (تفسير ابن كثير) والذين كانوا ينظرون إلى تلك الآية بمعنون ظاهرى أدركوا المدلول الظاهرى لكلمة الجنة ، والذين نظروا إلى تلك الآية بمعنون باطنى اعتبروا الكلمة تمثيلاً ، كان مدلول الكلمة وفق التفسير الأول يتعلق بشرفات الدنيا ولكنه وفق التفسير الآخر أصبح المدلول ذريعة لتبيان حقيقة الآخرة العظمى .

٢ - ولما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اختلف الناس في أمر الخلافة ، فمنهم من قال : إن الانتخاب يجب أن يكون في جماعة المهاجرين ، وبعضهم كانوا يتحمسون للأنصار ، وكان الناس مختلفين حول مسألة بيعة الخليفة ، وهنا نقل قطعة مما رواه ابن أبي شيبة عن ابن سيرين .. لقد روى هذا الاختلاف فقال :

« وأئم الناس عند أبي عبيدة بن الجراح فقال : ثأرني وفيكم ثانى اثنين » (كتب العمال : مجلد ٣ صفحة ١٤) ، وأبو عبيدة يريد من قوله أن يذكرهم أنه عندما هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة كان الوفد المهاجر يشتمل على شخصين هما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبته أبي بكر ، وهذا جاء في القرآن : (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما في الغار) التوبة : ٤٠ .

والذين كانوا ينظرون إلى هذه الآية بالمستوى الفظي لم يصلوا إلى حل مسألة الخلافة ، والذين كانوا ينظرون إلى الآية بمستوى الفهم الداخلي وصلوا إلى حل هذه المسألة حلا ناجعاً ووجدوا أن القرآن قد سبق ، فحل مسألة ترتيب الخلافة . فكلمة « ثانى اثنين » تدل على أن مكانة أبي بكر ثانى بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

والبحث الظاهري للآية وقف عند واقعة غار ثور ، بينما البحث الداخلي الأعمق أرشدنا إلى طريق حل مباشر لمسألة التي نجمت عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي مسألة اختيار الخليفة وذلك عن طريق الفهم وفق المستوى الداخلي ... وهو المستوى الأعمق ! فهناك إذن فقه بالدين وفهم للقرآن على المستوى الظاهري ، وفيه يرى الإنسان ما يبدو ظاهراً ويعمل على غراره - ولكن هناك عمل وفهم آخر - فالفاهم الأول (الظاهري) للقرآن كالسابع على سطح البحر ، أما الثاني فكالغواص على الدرر ..

إنه يصل إلى أغوار المفاهيم ، ويرى هذا الإنسان (الفاهر) الحقائق المستترة رأى العين ، إنه يرى الله في حجب الغيب ، ولئن كان شأن هذا الإنسان مثل أى إنسان في الظاهر فإنه مختلف عنه من الناحية النفسية فيختلف تخطيشه عن تخطيشه وتختلف روئته للأشياء عن روئية الآخرين .

إن الإنسان الذى يقف علمه عند السطح الظاهري لا يأخذ من الآيات إلا ديناً يمسُّ جسمه ، ولا يصل إلى شغاف قلبه ، أما من قرأ ما بين السطور فسيأخذ نصياً أو فر من المعانى حيث يكون ذلك غذاء ربانياً لروحه.

ولقد ورد في القرآن قوله تعالى : « ولباس التقوى ذلك خير » (الأعراف : ٢٦) فالشخص العادى يفهم أن المراد من اللباس هو اللباس الحسنى فيرى أنه من الواجب أن يكون اللباس مطابقاً لأوامر الإسلام ونواهيه ، ولكن عندما قرأ هذه الآية عروة بن الزبير علم أن اللباس هنا تمثيل وشرح « فلباس التقوى » يكون بخشية الله ، فكما أن الجسم الإنساني يحتاج في زينته إلى لباس ، فإن الروح تحتاج في زينتها إلى تقوى الله وخشائه (تفسير ابن كثیر) :

وكذاك الأمر في الجانب الاجتماعى للدين .. فإن إقامة الدين في المجتمع إما أن تكون باعتبار السطح الظاهري أو باعتبار المستوى الباطنى ، فقد كان المسلمون يفكرون في « الحدبية » في العام السادس الهجرى أن الجهاد هو أن ينزاوا الكفار عسكرياً ، فإن موت العزّ خير من حياة الذل ، ولكنَّ رسول الله ، وأبا بكر الصديق كانوا يربان أنَّ فتح الإسلام يتحقق بقبول جميع شروط الكفار وعقد معاهدة (اللاحرب) معهم ليتحسن الوضع ويستتب الأمر لحملة الدعوة — كان الناس يريدون حل هذه المسألة بالسيف المصلت .. وأما الدين أوتوا حكمة وبصيرة فقد اعتقادوا أنَّ الحل يكمن في الدعوة ، وهذا هو الميزان الذى لا ييارى فيه دين

الإسلام . وأضرب لكم مثلاً آخر من سيرة الحسن والحسين رضي الله عنهم : لقد واجه كل منهما وضعماً ماثلاً في حياتهما - واجه الحسن رضي الله عنه مسألة معاوية ، بينما واجه الحسين مسألة يزيد بن معاوية - رأى الحسين رضي الله عنه بنظرة ظاهرة واعتبر المسألة مسألة حق وباطل فدافع عن الحق وحارب الباطل ، وبعكس ذلك نظر الحسن رضي الله عنه إلى المسألة بوجهة النظر العملية فرأى أنه من الحكمة أن يتحاشى التزاع والصدام ويتنازل عن الموقف ويزهد في السياسة والحكم .

والتاريخ يشهد أن الحسين بن علي رضي الله عنه دفن في كربلاء ، وأنه ترك الباطل كما هو على وجه الأرض ، ونفع عن منهجه الحسن بن علي رضي الله عنه أن الإسلام قد بلغ أوج الاستقرار السياسي ، وتلاشى الخلاف والصراع ، وأخذ الإسلام يزحف من جديد إلى أصقاع العالم المختلفة - وبعد توقف الفتوحات - ومن ثم امتدت جيوش الدولة الأموية إلى نصف المعمورة تقريباً .

إن السياسة الرشيدة المتصرة في الشؤون الاجتماعية تكمن في الصبر والجلد ، وإن السياسة السطحية تكمن في انعدام الصبر والعجلة وعدم التخطيط ، بحيث يبدو لبعض المسلمين وكأنهم يعيشون على الأرض وحدهم مع أنهم يعيشون - بالتأكيد - بين الأمم الأخرى على هذه الأرض التي تعتبر مكان امتحان ، وقد أتيحت لكل شخص وأمة فرصة العمل - على الأرض - سواء كانت هذه الأمة ظالمة أو عادلة ، فإذا أصيب المسلمون بسوء من شخص كان أو فئة وثارت ثائرتهم ونهضوا بداعف من الثار والغضب واستعجلوا أمرهم فلن يكون نصيبهم إلا الخيبة والفشل .

ولكن إذا تحمل المسلمون السوء في بداية الأمر ثم فكروا في مختلف

جوانب القضية تذكرنا بهدفهم إلى جوانب ضعفهم وأسباب قوة الخصم، ثم وصلوا إلى الحل الحقيقي للمعضلة بالعقل المنطقى السليم ، إذا فعلوا ذلك ملتزمين بالرواية والصبر فسيكونون قد وصلوا إلى حفائق الحكمة المستجيبة مع سن الكون .. والمصير الحتم هو النصر والتوفيق والتكمين في الأرض .

إن "عدم الصبر والاندفاع بدافع العواطف الهاجنة يهوى بالإنسان إلى حضيض الأعمال الطائشة ، بينما يهدى الصبر إلى (صراط) التخطيط وحسن التصميم .. وفي ذريانا هذه يُنى العمل الطائش دائمًا بالفشل .. بينما يكمل العمل المدروس المخطط له — دائمًا — بالنجاح والبقاء ..

ضريحية الفكر

كانت الأرض الواقعة بين دجلة والفرات المسماة « مسوبوتاميا » في التاريخ القديم (العراق حالياً) آهلاً بذرية آدم الذين كانوا مسلمين آنذاك . ولكن عندما سرى فيهم الفساد بعث الله لهمائهم رسوله سيدنا نوح عليه السلام : ولكن القوم لم يرضوا بترك الفسق والعصيان فحل بهم العذاب في شكل طوفان ، فركب نوح مع شرذمة قليلة من أصحابه في سفينة ، فنجت هذه السفينة ومن عليها من هذا الطوفان العظيم ، وغرق الباقيون .

وقد ورد في القرآن أن ابن نوح لم يتفق مع والده ولم يؤمن به ، فذهب فريسة الطوفان « ونادي نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » هود : ٤٣ (لقد كان نوح عليه السلام يرى الطوفان (من أمر الله) فركب السفينة ولكن ابنه رأى الطوفان أمراً (مناخياً) وظاهرة من ظواهر الطبيعة فهرع إلى الجبل . فكان الفيصل بين النظرين جوهرياً فنجى أحدهما بروحه .. وأما الآخر فابتلعته أمواج الطوفان حين آمن بالظاهرة الطبيعية وكفر (بأمر الله) .

إنك إن آمنت بأن طوفاناً قد جاء بأمر من الله فسوف تسعى إلى مرضاة الله وتتولد في نفسك كيفية التضرع وحالة الخشية « فلو لا إذ جاءهم بأمسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » (الأنعام : ٤٣) .

وأما إذا اعتبرته حادثة من الحوادث التي تطرأ آناء الليل وآناء النهار بحكم ظروف الطبيعة فسوف تنمو في نفسك الغفلة والمعصية كما كانت في نفس ابن نوح عليه السلام .

والملعون يواجهون في هذا الزمان بعديد من الأعاصير وأنواع من الطوفان ، فقد هيمنتُ عليهمُ الشعوبُ الكافرة والقوى اللادينية سواء كانوا في أوطنهم – أغلبية أم أقلية .. فهنا أو هناك تصبُّ الأمُّ الكافرة الحاقدة جام غضبها عليهم ، وبالتالي فهم يعانون في كل مكان أنواع العذاب والشقاء .. وأحياناً تنفذ تلك الأمم المعادية إرادتها الناقمة على المسلمين عن طريق استغلال فئة منهم وجعلها عميلة لها . وفي حال بايس كهذا كان على المسلمين أن يتذكروا وعد الله أكثر من مرة في القرآن الكريم بأنه مع المؤمنين : « ولن تغى عنكم فشككم شيئاً ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين » (الأنفال : ١٩) . وبأنه سيدافع عن المؤمنين الصادقين : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » (الحج : ٣٨) .

وبأنه لن يسمح بهيمنة الكافرين على المؤمنين الصادقين : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » (النساء : ١٤١) .

وفي ضوء هذه الآيات التي يجب أن نعيها نحن المسلمين فإن علينا أن نعتقد أن ما يتنزل من البلايا والتوابع إنما هو تنبية من الله ، وأنه في حقيقته أمر من أمور الله وليس من الأمور البشرية العادلة أو الظواهر الطبيعية .. والسؤال الواجب هنا :

كيف يرى المسلمون اليوم هذه التوابع والخطوب المحيطة بهم ؟

إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتحدثون عليناً ويطنبون في أحاديثهم بأن هذه الأمور كلها إنما هي دسائس ضد المسلمين تقوم بها القوى المعادية للإسلام .

إن أقلامنا وألسنتنا لا تألو وسعاً ولا تدخل جهداً في إثبات هذا الأمر الوحيد ، وقلما يوجد من يرى في هذه المصائب أنها من أمر الله ،

بل ذهب بعض الناس ليكتشفوا يد « البيت الأبيض » وذهب غيرهم ليكتشف يد « البيت الأحمر » ، فمنهم من يتهم قوماً مشركين ، ومنهم من يلوم جماعة أخرى من الكافرين . وهذه - في الحق - ضلاله ما بعدها ضلاله - وهذه هي الفكرة التي أضلل الجماعات الإسلامية في هذا الزمان حيث إنهم اعتبروا (أمراً إلهياً) يوّد لهم الله به - مجرد حدث من الأحداث الإنسانية العادلة ...

فالتاريخ يعيد نفسه ، لأن الخطيبة التي افتر بها ابن نوح عليه السلام في قصة الطوفان يفتر بها المسلمون في هذا الزمان .

ولو أن المسلمين اعتبروا من هذا الوضع القاسي المريض الذي يعيشونه على امتداد الدنيا بأجمعها أمراً إلهياً لرجعوا إلى الله وأنابوا ونشأت فيهم فكرة إصلاح النفس وتزكية القلب وتنمية العقل ، وأصبحت هبّتهم موجهة إلى إصلاح تعاملهم مع الله على ضوء منهج الإسلام .. ولكنهم اعتبروه تأمراً إنسانياً ودسيسة من الدسائس ، فبالتالي ثارت ثائرتهم وجن جنونهم وانتشرت نسمة عارمة بين مجتمعاتهم ضد الأمم الأخرى .

والإنسان المسلم يؤمن بأن الله قادر قدرة مطلقة فإذا حسب أن النكبة التي ألمت به إنما هي من عند الله فسوف تنمو فيه نفسية التفسّر والإيمان إلى الله وتغيير نفسه من الداخل .

ولكن الإنسان إذا تأكد أن النكبة هي من تلقاء إنسان آخر فسوف تتولد فيه عوامل التأثر والخذلان والنسمة ، وهذه حالة المسلمين في العالم برمته فقد أصبحوا مغيبظين حانقين ناقمين على الذين يصنعون بهم المأمورات .

وتجدير بالذكر أن جميع حاملي الكتب السحاوية قانوناً إلهياً خاصاً موجزه أن الفساد عندما يسرى في مجتمعاتهم فإن الله ينزل عليهم المصائب

والعقوبات العاجلة ليتبهوا ويصلحوا ما بأنفسهم ؛ فاليهود الذين حملوا ديناً قد علّوا عقوبات شديدة في تاريخهم بما كسبت أيديهم من ضلال وفساد أسهب « الكتاب المقدس » في ذكرها ، فقد حفلت التوراة بذكر العقوبات التي حدثت قبل ميلاد المسيح عليه السلام في الزبور وأشعياء وأرميا وبابل ، والعقوبات التي نزلت بعد الميلاد ذكرت في أناجيل متى ولوقا ، فمثلاً يأتي ذكر الفساد في اليهود في الكتاب على النحو التالي :

فاشتد قهر الله على عياله فأدان ميراثه (إسرائيل) ونقم نعمة شديدة فألقى بنى إسرائيل تحت هيمنة الأمم الأخرى وحكم عليهم أعدائهم .

(الزبور الباب ١٠٦) .

وإن المقت الذي تعرض له اليهود جاء ذكره في القرآن :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاً هما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأمن شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ثم رددوا لكم الكراهة عليهم وأمددوكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أساءتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسواءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ولم يتردوا ما علووا تغيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عذتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » (الإسراء : ٤ - ٨) .

ويظهر مما أسلفنا أن هذه العقوبات الإلهية أجريت على اليهود بأيدي الناس ، فمثلاً قطع دابر الحكومة الإسرائيلية بغلبة ساميرية في قبل ميلاد المسيح فقد أعمل السيف في رقب اليهود فقتل عشرات الآلاف منهم ومن ثم أجل اليهود من معظم بقاع فلسطين وحلت مكانهم أمم أخرى واستوطنت هذه الأراضي . ولم ينزل الله الملائكة على الأرض لمعاقبة اليهود

بل كان ذلك الحاكم الأشوري سارغون الثاني « Sargon » هو الذي نفذ هذه العقوبة الإلهية على اليهود ، وفي عام ٥٨٦ قبل ميلاد المسيح عندما قتل اليهود في القدس وذاقوا الاستعباد والذل والموان وأحرق البيت المقدس فإن ذلك أيضاً لم يكن بالإمدادات السماوية بل كان على يد ملك بابل « بختنصر » ، ثم كان المجنوم على البيت المقدس في عام ١٦٨ قبل الميلاد مما جعل اليهود مستعبدين أذلاء مرة أخرى وأحرقت صحفهم السماوية : وفي هذه المرة أيضاً لم تكن العقوبة بيد الوسائل غير العادلة ولكن ذلك كان بواسطة ملك الشام (أنطيوخوس الرابع) « Antiochus » الذي صب جام غضبه على اليهود ، ثم دخل المحتلون الأجانب فلسطين مرة أخرى في عام ٦٣ قبل ميلاد المسيح ، فتوغلوا في البيت المقدس وأخضعوا اليهود . وبديهي أن الذى فعل ذلك لم يكن مخلوقاً سماوياً بل كان فاتحاً رومياً يدعى (بومبي Pompey) ثم شنت غارة شعواء على بيت المقدس في عام ٧٠ م ودمر هيكل سليمان وتحولت المدينة المقدسة إلى أنقاض وبلغ عدد الضحايا من اليهود نحو مائة وخمسين ألفاً ، وجعل الباقون عبيداً مستضعفين .. وفي هذه المرة أيضاً لم يظهر الملائكة بل حق الله العقوبة بواسطة الملك الرومي (تيتوس Titus) .

وقد اعتاد اليهود في تاريخهم نسبة هذه الأحداث إلى الأعداء ولم يكونوا يحسبون أن ذلك من عند الله ، لأن الشخصية البشرية الظاهرة كانت حجاباً أكبر ، ولكن القرآن والإنجيل يصدقان على أن تلك العقوبات كانت من عند الله ولو كانت الأيدي الإنسانية هي التي تعمل في الظاهر ، ولو أدرك اليهود أن جميع هذه العقوبات هي من عند الله لنشأت فيهم روح العبادة والتوبة ، ولكنهم رأوا أن هذه الأضطهادات إنما هي نتيجة الدسائس والمؤامرات فترولدت فيهم روح الغفلة ونفسية الترد .. والحقيقة أن الله

لا يبعث عقوباته بالملائكة بل تنفذ تلك العقوبات بواسطة البشر لكي تسترخي سدول الامتحان على وجه الحقيقة ، ولكن ينتبه العقلاه ويصلحوا شئونهم ، وأما الذين غرقوا في ظلام الغفلة والجهل فلن يزدادوا إلا ظلماً وعدواناً .

ودار التاريخ .. وظهر المسلمون ، وأصبحوا - أيضاً - في عصرنا الحديث - يوجهون التهم واللوم إلى غيرهم ف بذلك نشأت فيهم فكرة سلبية لا تمت بصلة إلى الحقيقة ولم تتولد فيهم عقلية تقوم عليها جهود مجدهية صالحة.

ولأن المسلمين اعتادوا أن يروا الأوضاع من جهة أنها (موافقة) فقد أصبحوا لا يرون خطأهم في أمر من الأمور وأنخذوا يوجهون اللوم والتهمة إلى الآخرين ونتج عن ذلك أن فكرتهم الدينية أصبحت موجهة إلى السياسة - فقط - غير أن الفكرة الدينية في الواقع يجب أن تكون موجهة إلى الآخرة - أولاً - وبالتالي أصبح المسلمون أمة خالية من الشخصية ، إذ أن الشخصية تتولد من الشعور بالمسؤولية ، وقد أصبح الشأن في المسلمين أنهم لا يعرفون أية مسؤولية ولا يدركون أى واجب .. وحسبهم فقط أن يطالبوا بالحقوق .

و نتيجة لذلك فقد أصبح منهج المسلمين في هذا الزمان منهجاً (قومياً) بدلاً من أن يكون منهجاً نابعاً من (المبدأ) وحده ، لأن الشعب الذي يعتبر الآخرين خصوماً له يغدو منهجه (قومياً) وإن هذا الوضع قد يفضي إلى الاقتتال والتخاصم بين المسلمين لأن المسلمين عندما لا يقدرون على منازلة شعوب أخرى عسكرياً فإنهم يتخاصمون فيما بينهم إطفاء لنار العداوة في قلوبهم وإرواء لنزعه الصراع المتأججة في صدورهم .

وإن الخسارة الفادحة التي تنتج عن هذه الفكرة الخاطئة هي أن المسلمين
تخلوا عن فكرة (الدعوة) التي هي مقصد وجودهم وغاية إخراجهم
إلى حيز الوجود ، فالMuslim الذي يدعو الناس إلى دين الرحمة والهدى ،
يختنق قلبه ويتفجر شفقة ورحمة بهم ، ولكن لما اصطلاح المسلمين على
فكرة المؤامرات والدسائس ، تكونت فيهم نفسية موجهة ضد الآخرين ،
إنها نفسية الكراهة والبغض وأنخذ التأثير ، فإذا كان هذا خالماً ، فكيف
يمكن لهم أن يقوموا بعمل الدعوة بإخلاص وجدية .. أجل كيف يمكن
للقلب الحاقد نشر الحب وللعقل المظلم نشر النور ؟ !

المعنى الفكري الصحيح

لقد ورد في القرآن الكريم « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم برّكات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (الأعراف : ٩٦) .

وقد ورد نفس المعنى في اليهود فقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لا كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » (المائدة : ٦٦) .

فلماذا هذه الخيرات والبرّكات والنعم لمجرد الإيمان بالوحى ؟ ..

بعض الناس يحسب أن هناك طلاسم سحرية تكمن في كلمة الإيمان ، وتفتح أبواب الكنوز بمجرد حركة اللسان كما كان باب الكتر يفتح بكلمة (فتح يا شمسم) في الأسطورة المروية عن سالف العصر والأوان .

ولكن هذه الفكرة لا تشبهها شائبة من الحقيقة فلو كانت هذه البرّكات تتوقف على حركة اللسان فإن المسلمين يلهجون بكلمة الإيمان اليوم أكثر بكثير من قديم الزمان لأن اللاهجين بكلمة الإيمان يشارف عددهم مئات الملايين في العالم ، ولكننا نعرف أن المسلمين رغم هذه الكثرة الكاثرة والأغلبية الساحقة لا يجدون سبيلا إلى برّكات السماء ولا إلى برّكات الأرض.

والحقيقة أن الأمر ليس بين وليس كما يفهمه الناس ، فإن كلمة الإيمان في هذه الآيات ترافق الثورة الفكرية ، والذين آمنوا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – من القرون الأولى كانوا يعرفون أن الإيمان في الواقع إرادة فكرية وعزم صميم مصدره الشعور ، ويمكن إدراك هذه

الحقيقة بسهولة إذا ما رأينا المدارك العملية للإيمان بالنسبة لليهود أو العرب المشركين .

ونحن الآن عندما نذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم نتذكر ذلك الرجل العظيم الذي أحاطت به هالة العظمة في التاريخ الذي يمتد إلى أربعين سنة وألف سنة ، ولكن ذلك الرجل لم يكن إلا « محمد بن عبد الله » إبان بعثته .. فإن تاريخه الحميد لم يكن قد ظهر بعد آنذاك ، بل كان مستوراً وراء حجب المستقبل ، وكان الناس ينظرون إليه كشخص عادي . أما اليهود والمشركون فكانوا يعتزون بدين صليب عوده واستقرار مكانه . لقد كان اليهود يعتقدون ديناً يتألق تاريخه بأسماء الرسل مثل موسى وداود وسليمان عليهم السلام . وقد انغرست هذه الأسماء في أعماق الأذهان منذ فترة طويلة من التاريخ . وكذلك كان حال المشركين فقد كانوا ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم وإسماعيل وبالتالي كانوا يعتبرون أنفسهم وارثي الكعبة ودين إبراهيم الخينف ، وهذه اعتبارات كان لها وزن وأثر وقد بلغت من الأهمية مكاناً كبيراً .. وبجمل القول إن نبي الإسلام كان يقف في بداية انطلاقة تاريخية في حين أن اليهود والعرب كانوا يقفون في ضوء شعاع التاريخ الوهاج .

وبناء على هذه الحقيقة فلم يكن الإيمان برسول الإسلام الذي ولد قبل أربعة عشر قرناً والوقوف إلى جانبه أمراً بسيطاً وميسوراً ، بل كان خروجاً عن دين استقرت دعائمه ، ودخولاً في دين لا يعبأ به أحد ، وليس له تاريخ مجيد مشرق القسمات واللامامح . لقد كان الأمر تخلياً عن صداقه تذرع بالمصالح وتتلفع برداها إلى صداقه لا علاقة لها بالمصالح والمنافع ، وكان الأمر في الحقيقة - أيضاً - ارتفاعاً عن الأمجاد الرخيصة المادية إلى

أمجاد العظمة غير المادية . ونطلاعاً للمستقبل المرتقب الذي يتسمى فيه الإنسان عن الآلة الملمسة إلى الإيمان برب غير ملموس .

لقد كانت هذه الخطوة مغامرة كبيرة ، ومثل هذا الحادث لا يحدث في حياة الإنسان ، وكأنه خروج من غرفة ودخول لغرفة أخرى ؛ بل يحدث أشبه بالزلزلة ، وأقرب إلى الانقلاب في التفكير ؛ فينبذ الإنسان شيئاً بارادته ويمسك شيئاً آخر بارادته أيضاً ، وتتحرك فيه إرادته وتستجاش كرامته وتنموج سواكته ؛ يمشي في طريقه لعبور جسر من التضحيات بكل غال ورخيص ، وللوصول إلى طريق آخر بنجاح يهتز فيه كيان الإنسان كما تهتز الشجرة التي تحركها موجات من الأعاصير ..

فإذا ما اختارت مجموعة بشرية فكرة أو دعوة على هذا التحو الانقلابي فسوف يتبين – من جراء هذا – إلى حيث الوجه وعلى سطح الأرض شعب جديد في أخلاقه وسلوكه وحركته .. يختلف عن أبناء جنسه الآخرين ومن هؤلاء الأفراد يتكون مجتمع جديد غير مسبوق النظير ؛ يكون مؤهلاً ليأتي بالمعجزات وليصنع المعجزات على وجه الأرض .

عندما نادى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العرب إلى الإسلام كانت الأديان الأخرى موجودة ومتصلة في المجتمع وكانت المصالحة مربوطة بها ومعتمدة عليها ، ولكن الإسلام لم يكن في ذلك الوقت إلا مجرد فكرة أو دعوة لم تترجم إلى الواقع بينما كانت الأديان الأخرى – كما أخنا – مراكز منظمة راسخة الجذور ، وفي مثل هذه الحال فإن الالتزام بالإسلام يعني التضحية بكل شيء والتنازل عن كل مصلحة في ذلك المجتمع الحارب لل فكرة .. هذا بينما كانت المصالحة مصونة ومضمونة بالانتهاء إلى أديان أخرى حيث يكون معنتها شخصاً محترماً في المجتمع ، لكن هذا (المحترم)

ما إن يتخذ الإسلام عقيدته ومنهجه حتى يصبح شخصاً غير محترم لأن دينه لم يكن قوى ساعده ولم يصلب عوده ، بل هو دين يحرمه من المنافع الذاتية والقومية . . وفي هذه الظروف كان اعتناق الإسلام يحتاج إلى عزم أكيد وقرار حازم جرىء ، وهذا كان الذين اعتنقوا هذا الدين في هذه المرحلة إنما اعتنقوه بسبب هزة شديدة حدثت في أغوار نفوسهم ، فكان هذا الاعتناق انتفاضة فكرية بالنسبة لهم ، إذ بدأوا يفكرون في إعادة النظر في معتقداتهم القديمة المتوارثة .. حينئذ اتخاذوا القرار وعقدوا النية ، فبنبوا تلك المعتقدات الجاهلية وراء ظهورهم وعزموا على لا يرجعوا إليها مهما كانت الظروف ، واختاروا ديناً عصوا عليه بالتواجد .

وبهذا العمل مزقوا ستار العصبية وغضوا النظر عن المصالح ، وأهملوا المنافع المادية الرعناء ، وخارطروا بأنفسهم ، وأصبحوا منعزلين عن عشائرهم وقبائلهم وأسرهم ومجتمعهم .. ثم هاجروا من أرض التقليد الميت عن وعي واستوطنا – عن إرادة – أرض العقيدة الحية .. أجل : كان الإسلام بالنسبة للمسلمين في العهد الأول انقلاباً فكريّاً ، لذلك فقد ولد هذا الانقلاب مجموعة بشرية انقلابية ، بينما أصبح الإسلام بالنسبة لمعظم مسلمي اليوم عقيدة ميتة لا حراك فيها ، وصار الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الإسلام يكونون مجموعة بشرية خاملة كالحشة الهاامة فليس فكرهم حماً ولا عملهم متوجاً .

لقد جاء في الحديث (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء) فإذا أمعنا النظر في هذا الحديث فسنرى أن التاريخ قد عاد القهري إلى ظروف ميلاد الإسلام الأولى ، فالبلون شاسع في عصرنا بين الدين المحفوظ في القرآن والدين المتبع بين مسلمي هذا الزمان ، فلذا سمي أو لم يسمى :

(الدين الكتابي) وآخرها : الدين الاجتماعي ، وإن الدين الحقيقي للنسمة فقط في الكتاب والستة ... لقد أصبح هذا الدين غريباً كما كان ، فعاد كما بدأ ، بينما أضحت الديانة الموجدة والمنتظرة في المجتمعات والبيئات المعاصرة مجرد هيئة منظمة اجتماعية ، كما كانت الأديان الأخرى إبانبعثة .

ونحن نرى أن الحركات الإسلامية القوية في هذا العصر تخلد إلى أرض هذا الإسلام المنظور الملموس ، ولو أنها تتباهى وتختلف في شعاراتها وتأفافاتها بين المطالبة بإسلام جزئي أو إسلام كلي .. ورغم هذا الاختلاف في المطالب فإن جميع هذه الحركات نشأت ونمّت على سطح الدين الاجتماعي الموجود وليس على سطح الدين الكتابي الحقيقي ، فأصبح إسلام اليوم مطية وسندًا لا يحصل إلى القيادة والسيادة ، أصبح حلاً تجاريًا لجلب المنافع ، وسوقاً من الأسواق يمكن بها استدرار الأموال والحصول على ما لا يمكن إحرازه من الأسواق الدينية العامة .

إنه يمكن بالإسلام استجاشة العواطف والحصول على التبرعات ، وملء صناديق التذكرة ، كما يمكن بالإسلام حشد جمع غير من النائم والإدلاء بالكلمات الرنانة بين أيديهم .. والغريب أن اليهود كانوا على نفس المنهج الذي نرى المسلمين الآن سائرين عليه في كل مكان .

ومن جانب آخر نشاهد الدين الحقيقي قد أصبح مغلقاً بين دفتي الكتاب ولا وجود له إلا باعتباره صورة فكرية و مجرد خيال .. لقد أصبح الدين غريباً بين أتباعه والمحتمسين له .

وفي مثل هذا الواقع القاسي المرير عندما يعتنق شخص مسلم الدين الإسلامي الحقيقي يعتنقه على حساب شعبيته ومكانته في المجتمع فيحسبه الناس مبتداً ديناً جديداً ، فلا توجه إليه الدعوة في المؤتمرات الدينية ،

ولا يرجى منه أن يتفضل مشكوراً لإلقاء كلمته في (الاحتفال القرآني) ولو كان قد أمضى عمره في دراسة القرآن والتأمل فيه ، ولن يقدم له منصب « شيخ الحديث » في معهد من المعاهد الدينية ، حتى ولو كان هو شخص البخاري ومسلم أو كان قد أمضى عمره في دراسة كتب الحديث وعلوم السنة ، ولن يبعد من صفة العلماء الربانيين حتى لو كان في مكانة رؤية من الورع والتقوى ، ولن يعتبر أهلاً للقب ديني حتى لو كرس حياته للإسلام وخدمته .

وورد ذلك أن ذلك الشخص يكون ثابتاً على دين الكتاب والسنة ، ونقاها على الدين الاجتماعي الموجود في كل مكان .. ذلك في عصر أصبح فيه دين الكتاب والسنة غريباً بين أتباع الدين الاجتماعي التقليدي ، أعني هذا الشيء الذي يحسبه الناس ديناً بينما هو مجرد مظاهر وصور وليس من الحقيقة الربانية العميقة في شيء .. إن هذا الدين مأخوذ من التقليد والعادات وليس نابعاً من مصدر الوحى (الكتاب والسنة) .

الضربة القاضية

« لعبه كبير » تعد من الألعاب المترقبة المعروفة وتلعب على اوحة خشبية يرتب في وسطها تسعه عشر قرصاً يشبه في حجمه عملة القرش أو الروبية ، والمبادر في هذه اللعبة يضرب بالقرص الصارب من زاوية اللوحة على جميع الأقراص . وإن كانت هذه الضربة تقع على نقطة واحدة لكنها إذا كانت ناجحة تسمى (عمل الأستاذ) أو ضربة « المعلم » ، وحرك كل قرص من مكانه ليدخل الشبكة ..

والحق أن عملية إحياء الدين الحقيقي تحتاج إلى مثل هذا العمل الأستاذى أو إلى « ضربة المعلم » حتى يحرك هذا العمل الكبير (ضربة المعلم) كل

شخص من مكانه ويثير فكره ويلهب عقله فيتمكن من أن يكون مؤهلا للتفاعل مع الدين الحقيقى الموجود بين دفى الكتاب والسنة الشريفة .

ولقد كان هذا هو نفس الأمر الذى وقع في فترة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم – وإن إعادة هذا الواقع إنما هو التجديد الحقيقى للدين في هذا الزمان ، وليس حقيقة تجديد الدين إلا إعادة عمل النبوة ، فقد كان النبي قد أحيا في عهده دين الله مقابل هيكل جامد للأديان الأخرى ، ويحتاج دين الله في هذا الزمان إلى شخص يضممه روحًا وقلباً ويتمثله حياة مقابل هيكل قائم للإسلام راج بين المسلمين وبدون إكمال هذا العمل لا يتوقع أن يتكسر جمود الناس في الدين وأن يتتحول الناس عن شخصيات وهيئات ومرآكز إلى دين الله مباشرة ليفهموا أن الأمور الأساسية هي الدين ويبنوا دينهم على أساس الحقائق بدلاً من أن يعتمدوا على الكرامات والطلاسم ليذوقوا لهذه الدين الحى الفعال وليهجروا الأعمال الخاوية من الروح .. وليدخل الإسلام في أعماقهم كفوة محركة ولا يكون كذيل أو « خاتم مامي » في اليد لا عمل له في حياة الإنسان ، وليتذوقوا حقيقة التقوى بدلاً من أن يعتبروا بعض الأعمال الصناعية ديناً ؛ وفي هذا الإيمان الصحيح يمكن حل أكبر معضلة تواجه المسلمين في الوقت الحاضر ، وهي المعضلة التي جعلت الإسلام يبدو جزءاً من حركات قومية يقوم بها المسلمون لأغراض مادية من أغراض الدنيا حتى أصبحوا فريسة الأمم والشعوب الأخرى .

ولقد كان من الطبيعي أن ينظر المسلمين الخاضعون للمنطلق القومي إلى الشعوب والأمم نظرة الازدراء والخذل والكراهة . وبالتالي تولدت من جراء ذلك نفسية قوامها الصراع والتزال والأنانية وأصبح المسلمون لا يطربهم إلا ما يروج عن بطولاتهم الحربية أو العسكرية في التاريخ ،

فتائق بذلك « التفسير العسكري » للإسلام والحديث عن مميزات النبوة بمحض لغات الحكم والسياسة وإشعال نار الفوضى والشغب ضد الأمم الأخرى فضلاً عن اعتبار هذه الأمم عدوة ظالمة مغتصبة والإعجاب بأساليب الحرب والتضليل بدلاً من المسالمة والتروى ما أمكن . وقد يبلغ ذلك حدّاً بدأ انسان معه ينظرون إلى كل زداء يدعوه إلى الآخرة والدعوة إلى البناء المادّي بهدوء رسمت وروية على أنه مؤامرة وشاغل عن التغور ، والجهات أمام أعداء الإسلام ، ومبطل للهمم ومخدر للقوة وداع إلى تفاهة الأمور التي لا أهمية لها ولا أولوية . ولو أقيم الدين الحقيقي على أساس من الحقائق الأبدية وفصل عن هيكل الإسلام الصناعي التقليدي فستهوي هذه الأفكار وتسقط على الأرض .

إن التعبيرات القومية والوطنية للإسلام تعجب الشخص إذا كان فكره منطلقًا من الوضعية القومية ، ولكن إذا بدأ الإنسان يعيش في إطار تعاليم الإسلام فستلاشي جاذبية هذه التأثيرات القومية ..

إننا أحوج ما نكون إلى هذا الوعي الفكري أو الثورة في التفكير ، إن نقطة الانطلاق الوحيدة لأى عمل حقيقي هي التوعية الصحيحة وهي الإقامة الحقيقة لأفراد هذه الملة الإسلامية على أرض الإسلام الحقيقي المترجل في الكتاب والسنة ، وهي – في الوقت نفسه – تصحيح لمسار ذلك الاتجاه الذي يجعل الإسلام أشبه بالذهب الاجتماعي التقليدي .

وعندما يبلغ هذا العمل حدّاً ملماً نحو الغاية المنشودة فسيحدث في المسلمين شعور رباني وسلوكي إلهي .. وقبل الوصول إلى هذا المقصود الأول يكون اقتحام المخاطر والقيام بعمل كبير مزاحل لا يمكن إلا للإنسان سلب له وضاع عقله وخال من الإخلاص .

والحقيقة .. أن جميع الأهداف التي نتمنى تحقيقها إنما هي النتائج والمحصلات الثانوية لهذا التغير الفكري ، وإن كافة النتائج التي تترقبها ونخن إليها سوف تنبثق من بطن هذا الانقلاب الفكري الذي سيتمكن – بإذن الله – من تحطيم أغلال مئات الأوهام التي أحاطت بحياتنا فيتيح من ذلك أن يزداد النشاط العلمي وينبع هذا التغير جرأة وقوة معنوية للأفراد فيقومون بالمهام التاريخية والأعمال المختلفة في مجالات شتى ، وقد ينشئُ هذا الانقلاب سعة أفق وامتداد طموح في الناس فيخطوون خطوات لا يخطوها هم غيرهم ، ويستثير هذا التغير الوعي الرباني في الأشخاص ، فيتمكنون من القيام بخطيط يفوق كل تقدير ، وبالتالي فلا يمكن لأحد الأعداء أن يتحقق هذا الخطيط أو يقضى عليه ، ولسوف ينجح هذا التغير في تسخير الشعوب والجاليات والمجتمعات تسخيراً حسناً فيصبح لأصحاب هذا التغير مواقفهم المديدة على وجه الأرض.

ومجمل القول عندما يتحقق هذا التغير فستنفجر بتابع الرزق من الأرض وتنهي أمطار الفضل ، ويكتب الله لهذه الأمة السيادة في الدنيا كما يكتب لها الفوز في الآخرة والخلود في الجنة .

حكمة تتابع الشرائع :

إن مقاومة الجمود الديني مطلب أساسى يطالبنا به الله تعالى .. وهذا هو سبب تتابع الشرائع واختلافها في التفاصيل لدى جميع الرسل . لقد كان المدف هو تجاوز الجمود الديني ، وقد نص على ذلك القرآن حيث يقول : « لِكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ بِعْلَمَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكُنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخِيَرَاتِ » (المائدة : ٤٨) . وقال تعالى : « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ هُنَّا نَاسُكُوهُ فَلَا يَنْأَيُنَا عَنْكُمْ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ أَعْلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ » (الحج : ٦٧) ..

وهذا هو الهدف الذى من أجله جاء الأمر بتحويل القبلة : « ولكل وجهة هو مولبها فاستبقوا الخيرات » (البقرة : ١٤٨) .

وبوضوح أكثر : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لتعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبه » (البقرة : ١٤٣) .

وقد اصطلاح بعض العلماء على استعمال مصطلح (التدرج) لتوسيع الفروق بين الشرائع ، وهم يريدون بذلك أن شريعة الله سارت على دروب الرق متدرجة من البساطة نحو الكمال .. وهذا هو السبب - فيرأبهم - وجود فروق في التفاصيل بين الشرائع ، مع أنه في الحقيقة لا أساس لهذا التفسير ، وقد أبان القرآن بوضوح أن سبب تغيير الشرائع إنما هو « الابتلاء » وليس « الارتفاع » فإن الشكل الظاهري للشريعة إنما يعني الإظهار الحى للعائد الدينية ، ولكن الشريعة ربما تفقد روحها وحيويتها بمرور العصور فتحول إلى هيكل جامد انفصلت عنه الأصرة الروحية والنفسية والإنسانية ، ولهذا فإن الله سبحانه ينسخ الهيكل القديم للشريعة ، ذلك الذي آل مرة إلى عما تقليدى جاف وينبئه حتى يتجدد به الإيمان وتنتهى به روح الدين ، و الناس - بالتالى - شريعة جديدة بوعى جدد وتصميم جديد .

وفي تلك المرحلة الدقيقة الحاسمة يتضح الفرق بين من « وشعرور . ومن يعبد الله جرياً على العادة والتقليد الجامد .

إن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مثال

نص القرآن على حكمة هذا التغيير « لتعلم من على عقبه » (البقرة من الآية ١٤٣) . والحة

بين من يتبع الحق ومن يتبع المراسم و « المراسم والتقاليد يظل خاضعاً لعصبيته ذلك المتعى التقليدى ، ويصحح مسار

الدعوة الإسلامية

عندما يأتي موسم المطر وتهب الرياح الباردة ، وتتبدل السماء بالغيوم يعلن ملك من ملائكة الله تعالى أن الذي يذر بذوره في الأرض فسوف يحيي الله له نظام الكون لتعود بذوره بخائدة مقدارها سبعمائة ضعف .

وهكذا حال الدين في هذا العصر ، فإن الله جمع جميع الأسباب لدعم الدين وغلوته وبعد مرور قرون متالية من الزمان ، ظل الأساس الذي تقرر منذ مئات السنين يلام الدين ويؤيده حتى يقوم عباد الله من المؤمنين لتحقيق الإمكانيات التي وفرها الله لهم ويكرسوا جهودهم لهذا الهدف النبيل .
أجل إن الذين يكرسون حياتهم لتحقيق هذه المهمة فسوف يعطيم الله أجراً عظيماً في الآخرة يعادل أكثر من سبعمائة ضعف أو أكثر وينعم عليهم في هذه الدنيا أيضاً بالقوة والتkickن في الأرض .

لقد اجتاز العالم الإسلامي مرحلتين وهو على عتبة باب المرحلة الثالثة ، فليت شعرى من هم الذين سيسجل التاريخ أسماءهم عداد من نور . . . فتلك بدون شك أكبر مهمة على وجه الأرض . فليتنافس في ذلك المنافسون ولি�ضحوا في سبيل ذلك بأرواحهم وأموالهم .

ما هو الإسلام؟

يكمن سر الإسلام في كلمة التوحيد . فكما أن الشجرة ليست إلا بذرة صغيرة فإن الإسلام أيضاً حقيقة التوحيد وما يقى منه إنما هو مظاهر التوحيد أو متطلباته . والتوحيد في الظاهر هو أن الله (واحد) وليس أكثر ، ولكن التوحيد في الحقيقة ليس مسألة تنتهي إلى باب العدد والحساب ، إنما هو بالنسبة للإنسان إثبات ذات الله تعالى على حساب نفي ذاته ، رفة ربه ومعرفة نفسه والإيمان بأن الله قادر مطلق ، والعبد بالنسبة لله

عجز مطلق ، وعندما يعرف الإنسان حقيقة هذه العلاقة بالله تبارك وتعالى فسوف يدرك حقيقة التوحيد ، فالتوحيد والإيمان بالله إرادة واعية من الإنسان ، تعنى الاستسلام أمام الحق ، مع القدرة على الإدراك ، وإن الإيمان هو الاعتراف بالحقيقة والاعتراف بالذى يوحى الوحي وهو أكابر بر وحسنات في هذه الدنيا .

هذا هو التوحيد الذى يدين الكون له بحملته .. إن الأرض والشمس مقادتان لله تعالى على وجه كامل تام ، ولا تبعد النحله عن الطريق الذى وضعها الله لها ، ولكن الأرض والشمس أو النحله كل منها لا تعمل ولا تؤدى واجباتها بأمر من شعورها وإرادتها بل إنها جبت فطرة على هذا الأمر أو سيرت مجبرة على هذا الطريق ، لا عن علم أو عن عمد أو قصد ، وإن الإنسان وحده هو الكائن الحى الذى يجعل نفسه مكموماً بإرادته وشعوره ، وكل شيء في هذا الكون - ما عدا الإنسان - يطبع أمر الله بوجه تام وهو محبوب عليه ولكن طاعة الإنسان - وحده - كما ذكرنا - هي من اختياره . وهى من حبه ورغبته وليس من قهره وإرهابه . والقرآن يعلمنا أن الأرض والسماء وما بينهما تسجد لله تعالى ولكن الإنسان عندما يضع رأسه على الأرض ساجداً لله فإن هذا العمل بنفسه عمل جد غريب لا غرابة بعده على وجه الأرض ، لأن الأشياء كلها تسجد لله بدون قصد وإرادة ، والإنسان يسجد لله عن عمد وبقصد وبشعور وإرادة وبدون إكراه ولا إجبار .

وليس ثمة حادثة موجودة في هذا الكون أهم وأكبر من تلك :

التي تقول : إن كل شيء في هذا الكون عاجز بالنسبة للقدرة " ١

بها الإله ، فهذا العجز الكوني ما هو إلا « صفر » مجرد
الذى يدل على القدرة والقوة .. فوجود شخص موحد

ويؤمن بهذه القدرة هو أكبر حادث يحدث تحت أدم السماء .. وصاحبها يستحق أفضل الجوائز والتقديرات .

حقيقة الجنة :

إن الجنة عالم عجيب خلقه الله لعباد المطاعين وسوف تتجلى في هذا العالم صفات الله تعالى الكمالية بكل وضوح وجلاء ، وقد جاء في القرآن عن أصحاب الجنة : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وهذه ميزة عجيبة إلى حد الإعجاز ، لأننا نرى أنه لا يمكن لشخص أياً كان ، وأينما كان في هذا العالم أن يعيش حياة لا تشبهها شائبة الحزن والخوف .. وقد جاء – أيضاً – في القرآن : « تحبّهم فيها سلام » وهذه الكلمات تدل على أن الجنة تكون موطنًا لزمرة من الناس الذين لا يضرون في أنفسهم شيئاً من أحاسيس أو مشاعر سلبية ، وقد ذكر في الحديث عن الجنة أن الإنسان إذا تناول غذاء أو مشروباً في الجنة فلا يخرج الغذاء والمشروب بطريقة الإفراز (البول والغاز) ، بل سيخرج هواء يفوح بعطر ويزيل ما لحق بالإنسان من أذى ، وهذا يدل على أن الجنة مقام لطيف حيث تخرج حتى فضلات الأغذية بشكل رائحة طيبة .

وقد ورد في الحديث أن الإنسان لن ينام في الجنة التي ستتحقق فيها مطالب الإنسان ، وهذا يعني أن الجنة تكون مليئة بالسعادة واللذة لدرجة أن الإنسان لن يضيع فيها ولو مقدار نوم ليلة حتى وإن عاش ملايين السنين فيها من لذة وسعادة لا توصف .. وفوق ذلك كله سوف يرى الإنسان خالقه صاحب الحول والطول والفضل والمنة الذي له الأسماء الحسنى وله ما في السموات والأرض وله سائر الصفات الكاملة ..

هذا هو المكان الذي لم يخطر على قلب بشر فنعم المولى ونعم النصير
نعم المكان ونعم المصير ..

أكْيَاةُ الْإِيمَانِيَّةِ

إن هذه الجهة لا يمكن أن يحصل عليها إنسان بشمن زهيد وإنما هي الجائزة لروح مطمئنة مؤمنة أثبتت إيمانها بكل طرق الإثبات . فإن الإيمان ليس أمراً هيناً ولا يكون الإنسان مؤمناً بعمارة بعض الواجبات الإسلامية مع الذوبان في الحياة الدنيوية العادلة . إن الإيمان ليس عملية تركيب حام شيء بشيء وترقيع عمل بعمل .. بل معنى الإيمان أن يصيغ حياة الشخص بصبغة الإيمان ، حتى يضم الإيمان بين جناحيه سائر نواحي الحياة .. إن الإسلام ليس بمتابة (خنصر) بيد الإنسان بل هو (يد) الإنسان بكاملها فمن جعل الإسلام ذيلا فقد أهان الإسلام وهو من شأنه ، وفي المقابل فإن الإسلام لا يطلب من شخص أن يلعب دور الضابط العسكري ، أو يقوم بدور الشرطي المعارض للحكام ، ويحسب أنه يحسن صنعاً ، ويؤدي واجباً إسلامياً .. إن هذه السياسة وضيعة لا تمت بصلة إلى الإسلام وإن هذا الأسلوب جرم يقترف بحق الإسلام ، بل هو جريمة للتهويل من شأن الإسلام .. وهو جزء من حركة تحريف الدين .

وكلا الأمرين (التلقيق في الدين أو التحول إلى شرطى وقاض وليس داعية) يثيران الغضب لا الرحمة من الله سبحانه وتعالى .

إن المؤمن شخص دخل في قلبه الإسلام على هيئة طوفان نفسي جعله يجد ربه أقرب إليه من حبل الوريد ، إنه إنسان انشغل بمناجاة ربه ، وغمرت خلوته بذكر الله ، وبلغم الإسلام لسانه فظل صامتاً لا يتكلم إلا عن ضرورة ، وفي يديه ورجليه أغلال من خوف الله ، إنه يشاهد ميدان الخضر قبل ساعة الحشر .

والواقع أن الأمر الذي يشاهده الكافر بعد موته يجربه المؤمن قبل موته
فالمؤمن يعرف - من دينه - في حياته ما لا يعرف الكافر في حياته .
إن الكافر سوف يراه - فقط - عندما تمزق أستار الغيب أمام عقله ،
فيصبح الغيب أمامه مشهوداً مكشوفاً .

الدعوة الإسلامية

إننا نعبر عن طيب النار عندما يدركنا لظاها بكلمة (الحرارة) ..
ونعبر عن إحساسنا بالثلج عندما نشعر بصقيعه بكلمة (البرودة) ..
وهذا هو شأن المؤمن مع الإيمان ، فإن الإيمان لابد أن يجعل نفسه محسوسة
في الخارج ، يشعر المسلم الناس بحرارته ولهذا فوجود مؤمن على آلية بقعة
من الأرض يجب أن يكون ضماناً لاستمرارية الدعوة الإسلامية فيها ،
 فإذا دخل الإيمان قلب الإنسان فلابد أن يظهر أثره في الخارج .. وهذا هو
معنى الدعوة الإسلامية .

إن الدعوة الإسلامية تتوجه إلى إيجاد تغيير في الفرد لا إيجاد زعزعة
في الكيان القوى أو الدولى . إن التغير الإسلامي بمثابة ثورة نفسية أصلية ،
وبما أن الثورة النفسية لا تحدث إلا في نفس الإنسان ، فكذلك يتركز
تأثير الإسلام - أولاً - في الفرد . والواقع أنه ليس للكيان القوى أو
الدولى أى وجود نفسي إلا من مجموع الكيانات الفردية . وإذا استهدف
كياناً وطنياً أو دولياً للدعوة الإنسانية فكان رمي بسهامه في الفضاء بحراً
بالغيب .

وربما تجد الأوضاع القومية أو الجغرافية تدفع بعض الناس إلى المخربة
والنشاط ، لكن إذا قدر وبذلت الحركة في المجتمع الإسلامي نتيجة لهذه
الأحوال السياسية أو القومية فلن تسمى تلك الحركة حركة إسلامية .

وكذلك انطلق المسلمون في صراعهم مع العدو منطلاقاً قومياً لكتبهم
عبروا عنه بكلمة (الجهاد) أو إذا شرح المسلمون صراعهم القوى
بمصطلحات الدين ، فإن هذا التفسير أو الشرح لا يمتان بصلة إلى الإسلام ..
ويكون تسمية ذلك إسلاماً ، تسمية غير حقيقة .. وهذا يستوجب العقاب
ولا يستوجب الرحمة أو النعمة . ومن هنا فتحن نرى أن كثيراً من
الحركات الإسلامية التي بربت إلى حيز الوجود في هذا العصر لم تأت
أيةفائدة ، كأنها لم تفز بأية درجة عند الله ..

والحق أن كثيراً من هذه الحركات مجرد قلائل واضطرابات وطنية
لا علاقة لها بالإسلام الحقيقي . إن حركة الدعوة الإسلامية هي حركة
الدعوة إلى الجنة .. والجنة مكان لطيف ونبيس سيعمرها أشخاص تخلقاً
بأخلاق الله وقاموا بشهادة الحق في علاقتهم اليومية وتحركوا بدافع من
الآخرة لا من أجل هدف سياسي أو اقتصادي (١) .

إن هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار ولا يدخل الجنة إلا من فاز في
هذا الاختبار وأثبت أنه يستحق الفوز بالجنسية في «الجنة» (٢) . وأما يقية
الناس فيرفضون ليعيشوا في هوة الظلام مطرودين من رحمة الله .

إن العالم الكوني جميل وجذاب ما عدا عالم الإنسان .. انظر إلى عوالم
الزهور والرياحين وإلى الأشجار الباسقات الوارفات الظلال ، واذظر إلى
المناظر الطبيعية الممتدة بين الأرض والسماء .. إنها تأخذ بمجامع القلوب

(١) بل الأهداف السياسية والاقتصادية وسيلة للآخرة .. لكتها
وسيلة ضرورية (المراجع) .

(٢) تعبير جنسية الجنة تعبير لطيف .. وهي جنسية مؤهلاتها
القوى لا الغنوصية (المراجع) .

ويبدو الإنسان أن يراها دون أن يغمض جفنيه ، ولكن على العكس من ذلك دنيا الإنسان فهي حافلة بالأرجاس والآلام والمظالم ، فلماذا هذا الفرق بين عالم الإنسان وعالم الكون ؟ ..

إن السبب الوحيد هو أن العالم الكوني تحكمه التواميس الإلهية الكونية دون اختيار ، وهذا ظهرت كما شاء الله أن تظهر ، ولكن الإنسان قد أعطاه الله الحرية ، وبسوء استعمال هذه الحرية جعل هذه الدنيا جحشا . إن الله هو مالك جميع الخبرات والطبيات فإذا نفذ إرادته تكونت (الجنة) وإذا أمسك إرادته تكون الجحيم .

والسؤال المطروح هنا هو : لماذا عرض الله هذه الدنيا للخطر بإعطاء الإنسان حرية التصرف ليتصرف فيها كيف يشاء ويحمل هذا العالم الجميل بسوء تصرفاته وفساد أعماله إلى دار عذاب ؟ ..

والجواب أن ذلك للاختبار والاختيار .. فالفاائزون من بنى آدم يستحقون الإقامة في دار الجنان .. والخاسرون لهم عذاب أليم في جهنم وبئس القرار .

حقيقة أن عالم الله الواسع ينقاد له سبحانه، بحيث لا يتزمر عليه شيء في هذا العالم من المخلة إلى الكواكب وال مجرات العظيمة .. ولكن جميع هذه المخلوقات منقادة بدون شعور ، ولا تعلم شيئاً إلا الطاعة والانتقاد وهي لا تستطيع غير ذلك ، فأراد الله أن يخلق مخلوقاً يتمتع بالحرية فيستعمل هذه الحرية لطاعة الله بإرادة وشعور على علم وعن عمد فكان هذا المخلوق هو هذا الإنسان .

لقد خلقت هذه الدنيا للإنسان اختباراً وابتلاء ، والحق أن قلق الإنسان وعذابه يرجعان إلى (الفساد في الأرض) .. وفي رأى مفكر من المفكرين

أن التاريخ الإنساني كله يبدو كأنه سجل للفساد والظلم .. فالواقع أن الإنسان يستعمل حريته للفساد في الأرض ، وهذا حق ، ولكن الله سبحانه قادر على هذا الجانب المظلم للحياة الإنسانية لأجل اختيار (النوع الأفضل) أو الزمرة المصطفاة من الإنسان .

إن الزمرة المختارة من الجنس البشري هي النوع الأفضل ، وهولاء الأفراد هم الأفراد الذين كان بإمكانهم أن يكذبوا الحق فلم يكذبوا ، وكان بوسعمهم أن يرفعوا رأية أنانيتهم فلم يرفعوها ورضوا بأن يكونوا في الصف الخلفي ، وأن يكون خالقهم - سبحانه - هو الأمر والنهاي - لقد كانت لهم حرية أن يبنوا قصراً لصالحهم ، ولكنهم هدموا قصرهم بمعول الإيمان ، ورضوا أن يرفع (قصر الحق) فقط .. على وجه الأرض ، وإن الدعوة الإسلامية ترمي إلى العثور على هذه الأرواح النظيفة الطيبة لتنجيها من النار ولتسوّقها سوقاً إلى الجنة .

الإصلاح الإسلامي :

إن أساليب الثورة السياسية أو المدنية ليست من الأساليب التي يتواхماها الإسلام مباشرة ولكن التغير إلى الأصلح نتيجة غير مباشرة لتطبيق الإسلام . وعندما تتكون زمرة في مجتمع ما ، تلتزم بأن تحيا لله وتموت لله ، فإنها سوف تقود العهد وحضارته بطريقة تلقائية .. فإن السياسة الإسلامية أو انظام الإسلامي عبارة عن انتقال تلقائي للسلطة إلى أيدي رجال لا تلهمهم تجارة ولا يبع عن ذكر الله .. إنهم الرجال الذين يتذوقون حلاوة الإيمان ولا يرضون بها بديلاً ، ويتنازلون عن مطامعهم وأغراضهم في الدنيا .. وبعيشون - وهم في الدنيا - في نعم الآخرة .. هذه هي (الزمرة المختارة) المؤهلة لكي تسود ، وعندما ينتهي إليها الحكم تقوم الصلاة وتأمر بالمعروف

وتهنى عن المنكر (فهذا هي دعائم النظام الإسلامي) ولا يمكن تكوين هؤلاء الأفراد إلا ببناء حركة خاصة للأخرة لاتشوبها شائبة المفاسد الدنيوية ..

وعلى العكس من ذلك إذا حدث انقلاب بقوة المظاهرات أو المظايف فلن يكون ذلك انقلاباً إسلامياً بل يكون فوضى غالباً ما تكون فيها هنافات الإسلام بينما تفقد حقيقة الإسلام ، وسوف تتكرر في هذا الانقلاب كلمات « العدل » و« الحق » و« الحكم للإسلام » حتى يكون هناك دوى في الآفاق ولكن في الحقيقة لا تجد وراء هذه المظايف إلا أغراضًا شخصية للقبض على مقاليد السلطة ، والإطاحة بعروش الآخرين ..

إن جميع المجتمعات والمؤتمرات الكبيرة والخطب الرنانة التي تسرّ بعنوان الإسلام أو الأخلاق أو الإنسانية ليست في حقيقتها إلا للدعم قيادة حزبية معينة ..

إن الشرط الأساسي للنهضة الإسلامية إنما هو وجود أشخاص فاقدى الأنانية ، وهذه هي الميزة التي تفتقد لها الحركات المعاصرة ، بل على العكس فإن هذه الحركات ذات الطابع السياسي والوطني توفر غذاء لأنانية الشخصية وهي لا تستطيع أن تستأصل هذه النفسية الأنانية ، ولا تقدر أية حركة رامية إلى القيام بشورة خارجية على أن تخلق (إخلاصاً) أو طهارة داخلية أو تسهم في تكوين خلق حسن نابع من دافع ذاتي لا من دافع خارجي ، فكما لا يكسب شخص المال لغيره فلا يمكن لشخص أن يتصرف بصفات حسنة بمحركات خارجية .. والذين يعتقدون أن التخلّي بالأخلاق البالية يمكن أن يتم باسم « النظام » إنما يقدمون الدليل على سطحيةهم وبلاهتهم فقط

وظيفة الرسول :

مهمة الإسلام مهمة واحدة وهي دعوة الناس إلى التوحيد ورصد الجهد لجعل الإنسان إنساناً مؤمناً وموحداً ، وكانت هذه هي مهمة كل

الأنبياء ، ولكن دعوة التوحيد قبل بعثة النبي الخاتم محمد – صلى الله عليه وسلم – كانت تقتضي التضحية بالأموال والأرواح . والذين قاموا بهمة الدعوة إلى التوحيد ذاقوا أنواعاً من العذاب وألقوا في النار وتمزقت أجسامهم تمزقاً .. وكان سبب ذلك أن الشرك يتمتع بسطوة فكرية من قديم الزمان ، حتى السياسة كانت تقوم حينذاك على دعائم الشرك ، وكان الملوك في قديم الزمان يحكمون بمحنة أنهم من سلالة إله من الآلهة ، ويعتقدون بخلول ذات الإله في أنفسهم ، فعندما يدعوا الداعي – مع هذه الوضعية – إلى التوحيد وإلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله فإنهم كانوا يعتبرون هذه الدعوة تحدياً لحكمهم ومقاومة لسلطتهم ، كانوا يرون في هذه الدعوة رفضاً لسياساتهم المشركة وخوفاً على مصالحهم السياسية ، كانوا يبتلون العداء للدعاة التوحيد ، ويدليون لهم سوء العذاب .

لقد أراد الله أن ينتهي هذا الوضع إلى أبد الآبدية ، ولهذا أرشد الله رسوله والصحابة إلى الدعاء الذي جاء في القرآن : « ربنا ولا تحمل علينا إصرأ كما حملته على الذين من قبلنا » .. فإن هذا الأسلوب في الدعاء كان يوحى بأنه سيحدث انقلاب جديد في التاريخ الإنساني سوف يسفر عن قطع وشيعة (الشرك) عن السلطة والحكم باسم الآلة ، وسوف يكون الحكم بعد ذلك أمراً (سياسياً شرعاً) وليس أمراً (عقائدياً) .. وكانت هذه هي الخطوة الإلهية التي يوجها أمر الله المسلمين بقوله تعالى : « وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (١) ، ومعنى الفتنة (الابتلاء) . يقال فمن فلان عن رأيه يعني : صرف عن رأيه ، وجاء في سورة يونس (آية ٨٣) : « أَن يُفْتَنُوهُمْ أَيْ بِعْذَبٍ هُمْ ، فَإِنَّ الْفَتْنَةَ

ترادف الكلمة الإنجليزية « Persecution » يعني الإيذاء أو الاضطهاد أو التعذيب من أجل فكرة أو عقيدة .

فما هي الفتنة التي أمر الله من أجلها باستصال المشركين .. ؟ .

إنها هي فتنة الشرك ، فقد فسر المفسرون كلمة الفتنة (بالشرك) ، غير أن الشرك ليس هو الشرك على الإطلاق وإنما هو الشرك الخارج . إذ أن (الشرك الخارج) هو الذي يصبح عائقاً فمعنى « حتى لا تكون فتنة » أي حتى لا يفتن رجل عن دينه ، يعني قاتلوا الشرك الخارج حتى ينذر وتطمس آثاره ، ويكون دين التوحيد هو الغالب والمهيمن .

إن الشرك في صورته الأولية عقيدة بحتة ولكنه كان محور (الفتنة) في قديم الزمان ، وكان السر في ذلك أن الشرك في قديم الزمان قد استولى على الفكر الإنساني وأحاطه من كل الجوانب ... كان الإنسان في قديم الزمان يرى كل شيء بمنظور الشرك حتى بنيت السياسة والسلطة على الشرك . كان الناس يحسبون الشمس والقمر إلهين من الآلهة ، والأسرة المالكة كانت تدعى أنها من سلالة الشمس القمر ، ولا يكاد يتصدع داعي التوحيد بقول « لا إله إلا الله » حتى يتزل عليه المشركون النازل ويصيرون عليه جام غضبهم ويورطونه في الخن والشدائد .

إن الانقلاب الإسلامي الذي حدث في الجزيرة العربية وضواحيها قد خلع الشرك من مكانته الفكرية ، وانتزع منه النفوذ الفكري فبات الشرك عقيدة ذاتية ، ولم يعد فكرة شعبية يقوم عليها نظام الحياة الاجتماعية ، وقد أسفر ذلك الانقلاب عن انفصال علاقة الشرك عن الحكم ولم يعد يمكن شخص أن يدعى حق الحكم باسم الشرك ..

لقد كان هذا أول انقلاب في التاريخ الإنساني المعلوم ، ونخس بالذكر هنا شيئاً من آثار هذا الانقلاب الكامل الخفيط بجميع نواحي الحياة :
أولهما : أن الناس لما علموا أن الله هو « إله واحد » وما عداه مخلوق ومحكوم ، ماتت عقلية تقدير مظاهر الطبيعة والأشياء التي كانت آلة تعبد ويسجد لها .. بل أصبحت (الطبيعة) خادمة للإنسان مسخرة له ، فذهب الإنسان يستكشف كنهها وحقيقةها ويستخدمها لحاجاته .. كان هذا هو (الانقلاب الفكري) الذي قضى على عهد الأوهام والأساطير ، وافتتح عصر العلم الحديث .

وثاني الأمرين : أن هذا الانقلاب انقض به عهد عبادة الملوك على المستوى الفكري - على الأقل - وببدأ عهد الشورى ... ولما علم الناس أنهم سواء وليس في أى إنسان منهم صفة الألوهية ، لم يبق لأحد حق الحكم الإلهي على وجه الأرض .

لقد انطلق (هذا الانقلابان) من دولة الإسلام في المدينة ، ثم وصل إلى دمشق ، فبغداد ، وأسبانيا ، وصقلية .. حتى انتشر في معظم أقطار العالم .. وكانت هذه الحركة الفكرية (التوحيدية) تعانى من عقبات حيناً بعد حين بسبب ما استقرت في الأذهان والمعقول من شرك قديم ، ولكن مع هذه العقبات كانت هذه الحركة الفكرية تمضي قدماً نحو الأمام ، ولم تصادر أية محاولة من القوى المعاشرة النجاح في استعادة عهد تقدير الطبيعة ، ولم يتمكن أى حاكم من أن ينال مكانة الملك المعمود المقدس ، كما نال المفروذ في العراق وفرعون في مصر في قديم الزمان.

من العالم الإسلامي إلى العالم العربي

لقد انطلق هذا الانقلاب ، وبقى نحو ألف سنة في العالم الإسلامي .. ولكن مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي كانت قد تصدعت وحدة المسلمين حتى انهارت الدولة العباسية التي كانت عاصمتها بغداد ، ثم افترض عهد المسلمين لنفس السبب في أسبانيا ، فلم تبق في العالم الإسلامي هيئة أو مؤسسة تقوم برعاية العلماء الذين كانوا يكرسون حياتهم للبحث والتنقيب ، وأمام هذا الوضع اضطرب هؤلاء العلماء والمفكرون إلى التزوح تدريجياً إلى إيطاليا وفرنسا ، فلقي هؤلاء العلماء حفاوة بالغة في أوروبا لأسباب معلومة .. وبالتالي بدأت آثار انقلاب (التوحيد) الذي كان قد بدأ في العالم الإسلامي تنتشر في أروبا ، غير أن هذا العمل تعرض لتغيير عندما وصل إلى أوروبا .

كان هذا الانقلاب قد ظهر إلى الوجود في العالم الإسلامي بتأثير (الإسلام) ولكن أوروبا لم تكن مسامحة فقادت بتطوير هذا العمل من الناحية العلمية فقط ومع أن انتقال العلوم الإسلامية وتعليم اللغة العربية أثر إلى حد كبير على العوائد المسيحية حتى إن أفكار مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) كانت وليدة أثر الإسلام على أوروبا مباشرة ، ولكن هذه النهضة العلمية والفكرية ظهرت في أوروبا كحركة (علمانية) وليس ذات روح ديني .. إن الثورتين العلمية و (الديموقراطية) اللتين ظهرتا في أوروبا قد نبعتا من نوع انقلاب التوحيد الإسلامي . ولكن الغرب الأوروبي أعطى هاتين الثورتين الصبغة العلمانية .. فـما لا شك فيه أن الثورة الأوروبية الجديدة إنما هي (صورة دنيوية) (للثورة الإسلامية) كما نجد (القنبلة الذرية) صورة عسكرية لنظرية النسبية (البرت اينشتاين) والملكية (الجماعية الاشتراكية) صورة اقتصادية لنظرية الماركسية .

دور الإسلام في ظهور الحضارة الأقريبية

ذكرنا أن الثورة العلمية أو الانقلاب الغربي الجديد كان وليد الانقلاب الإسلامي ، وكانت نتائج هذا الانقلاب هامة جداً من الناحية الإسلامية .
كان هذا الانقلاب استجابة في هذه الدنيا للدعاء الذي ورد في القرآن : « ربنا ولا تحمل علينا إصرأ كاما حملته على الذين من قبلنا » فإن التغيرات التي حدثت كانت في صالح المسلمين في الحياة الاجتماعية على النحو التالي :
أولاً : لقد كان الملوك في قديم الزمان يحكمون الناس بمحنة أنهم من سلالة الآلهة ، ولذلك ظلت دعوة (التوحيد) في قديم الزمان معارضة للحكم السياسي فكانت تتعرض للمقاومة والمحظوظ ، لأن المتألهين المستبدین من الحكام كانوا يعتقدون أن مقاومة الشرك تحمل ضمناً معارضة لحق حكمهم ، فالثورة الفرنسية التي ظهرت إلى الوجود في أوروبا إنما قامت نتيجة للثورة الفكرية الإسلامية التي قضت على عقيدة تأليه الملوك إلى أبد الآبدية ، فظهرت لأول مرة في التاريخ إمكانية نشر التوحيد والدعوة إليه بدون خشية الاضطهاد .

ثانياً : والشيء نفسه - كما ذكرنا - في أمر عبادة مظاهر الطبيعة ونقديسها ، فإنه لما جاء الإسلام أحدث انقلاباً عظيماً في الفكر فصار الناس يعتبرون هذه المظاهر الكونية مظاهر مادية عامة ، وأصبحت هذه المظاهر موضوعاً للبحث والتنقيب والتحليل لا موضوعاً للعبادة والقدس إن هذه الثورة الفكرية كانت فاتحة عصر (العلم والتكنولوجيا) ، وبالتالي تمكّن (الإنسان) من اختراع وسائل المواصلات والاتصال الحديثة ، مثل المطابع والراديو والتلفزيون حتى ظهرت ولأول مرة في التاريخ إمكانية نشر الدين على صعيد دولي .

ثالثاً : ونتيجة هذا الانقلاب الجديد أصبحت حقائق الكون مكشوفة وصارت هذه الحقائق ذات دلالة علمية على صحة مبدأ التوحيد والمعتقدات المتعلقة به .. فلأول مرة أصبح من الممكن إثبات الحقائق الدينية بأدلة منبثقة من مشاهدة عالم الطبيعة .

رابعاً : إن هذا الانقلاب أبدع منهجاً علمياً نقدياً موضوعياً لا تشبهه شأنة الأوهام والخرافات ، ونتيجة لهذا الانقلاب الفكرى تم الاعتراف بأن جميع الأديان غير تاريخية وغير موثق بها إلا بالإسلام وانظر في ذلك كتاب « The Bible and He Quren and Science » (الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث - لموريس بوكاي Maurice Bucaille) .

سيطرة أوربا على العالم الإسلامي

لقد انتصر العالم الإسلامي في الحروب الصليبية على أوربا المسيحية ، ولكن بعد هذا الانتصار بدأ الوضع يتقلب تدريجياً ، إذ أدركت أوربا النصرانية أن سبب الهزيمة هو تخلفها عن العالم الإسلامي في الميدان العلمي والفكري ، فعكفت على تعلم العلوم الإسلامية ولغة العربية . وبعد قرون كثيرة عندما نزح العلماء المسلمين من عواصم الدولة الإسلامية - كما أسلفنا - إلى أوربا سار الركب العلمي في أوربا سيراً حثيثاً حتى سبقت أوربا المسلمين في جميع مناحي العلم والعمل ونالت قصب السبق فبدأت تتغلغل في البلدان الإسلامية حتى تم لها الاستيلاء على كافة البلدان الإسلامية تقريراً .

إن هذه هي الكارثة السياسية التي أدت إلى ظهور ما يعرف بالنضال السياسي ، حيث رأى المسلمون أن الأمم التي هزمت في الحروب الصليبية قد دخلت ديارهم وانتصرت بعد فشلها التدريجي . وبالتالي بدأ عهد (النضال

السياسي) في جميع البلدان الإسلامية وأصبحت فكر النضال السياسي شغلاً شاغلاً للمسلمين ، وأصبح البعض منهم يعتقدون أن هذا النضال السياسي هو (حقيقة الإسلام) وهو الطريق لكي يعلموا هذا (الجهاد المقدس) ضد الحكام الوطئين عندما يفرغون من الجihad السياسي ضد الحكام الأجانب .. في هذه البيئة السياسية لم يكن يسمح لأحد أن يبحث عن إمكانيات جديدة في العالم الجديد - خارج نطاق النضال السياسي - تضمن أو تتكلف بنجاح الدعوة الإسلامية .. كانت هذه الإمكانيات تنتظر شخصاً يقوم بعبء الدعوة ، ويستغل (الإمكانات الجديدة) ويستحوذ على إمداداته ، ولكن (النفسية السياسية) شغلتنا عن السير على جادة الإسلام والدعوة الإسلامية.

حقيقة الانقلاب السياسي

• ما هو موقف الإسلام من الانقلاب السياسي .. ؟ ..

إن الانقلاب السياسي في نظر الإسلام هو سيطرة أهل الحق على أهل الباطل ، ولقد صرخ القرآن بأن هذه السيطرة تتحقق بنصرة الله وترفيقه « وما النصر إلا من عند الله » .. والشرط الأساسي لاستحقاق النصرة الإلهية هو القيام بواجب الدعوة ، فعندما يقوم أهل الحق بمهمة الدعوة مستوفين جميع الشروط الالزامية ويصلون إلى درجة التأهيل الكامل ، فإنهم يستحقون لقيامهم بحق الدعوة جائزة من الله ، كما يستحق أهل الباطل - برفضهم هذه الدعوة - عقاباً من الله . فينزل الله نصره ، وتنقشع سحب الظلم عن المسلمين ، ونجرى الأمور في المجرى الذي يقلب كفة الميزان على الأرض ، وحينئذ فقط ينتصرون المسلمون بتأييد الله .. فهذه هي سنته في التغيير والنصر : « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (الأنعام: ١٣٦)

(م) - قضية البعث)

لقد قرر القرآن في غير مكان أن سيطرة الأمم غير الإسلامية على الأمم المسالمة إنما يكون بحكم قانون الاختبار والإمتحان، أما نصرة المسلمين على أعدائهم فالقرآن يقرر أنه يكون بحكم قانون (القيام بالبلاغ) فإذا لم نقم بواجب الدعوة إلى الله، فليس لنا أن نتوقع انتصار المسلمين على غير المسلمين.

فإنما نصرة المسلمين على غير المسلمين تتحقق بحكم قانون (القيام بالبلاغ) فإذا لم نقم بواجب الدعوة إلى الله، فليس لنا أن نتوقع انتصار المسلمين على غير المسلمين.

فإنما نصرة المسلمين على غير المسلمين تتحقق بحكم قانون (القيام بالبلاغ) فإذا لم نقم بواجب الدعوة إلى الله، فليس لنا أن نتوقع انتصار المسلمين على غير المسلمين.

رôle الفعل السياسي في العالم الإسلامي

صادفت بداية القرن الرابع عشر الهجري نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، وعند هذه النقطة نقول : لقد كان القرن الرابع عشر الهجري ذا أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي ، إذ أن هذا القرن بدأ عندما اكتمل الأثر الناجم عن انقلاب (التوحيد) الإسلامي ، وقد تهافتت جميع الوسائل اللازمية لنشر الهدایة التي أنزلاها الله للعباد بواسطة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم – ولكن – يا للأسف – هناك مأساة سوف يسجلها التاريخ وهي أن المسلمين – بأنفسهم – قد أغلقوا ذلك الباب الذي فتحه الله لهم نتيجة تطور دام ألف سنة .

لقد استخدمت أوربا (القوة) التي وفرها الانقلاب الجديد لنشر مطامعها القومية ، وقد حذا الآخرون حذوها ، فلم تلبث الأمم الأوروبية أن سيطرت على ما تعتبره من الطاقات الجديدة حتى رأينا هناك شيئاً يدعى (الاستعمار الغربي) يمثل ظاهرة عالمية ، فقد خرجت أوربا وانتشرت في العالم وغرسـتـ البيـاريـقـ والأـعـلامـ الغـريـبةـ فـيـ البرـ والـبـحـرـ ، وـنـشـرتـ حـضـارـتهاـ فـيـ الـبـلـادـ الـأـخـرىـ . أما الذين وضعوا العراقيـلـ فـيـ وـجـهـ نـفوـذـ أورـباـ وـسـلـطـانـهاـ فـقـدـ تـعـرـضـواـ لـكـثـيرـ مـنـ أـنـوـاعـ الـظـلـمـ وـالـقـهـرـ .. وـكـانـ آنـ أـصـبـحـ المسلمينـ مـبـاشـرةـ فـرـيـسـةـ اـعـتـدـاءـاتـ الدـوـلـ الغـرـيـبةـ ، إذـ آنـ مـعـظـمـ العـالـمـ الذـىـ زـحـفـتـ عـلـيـهـ أورـباـ الـاستـعـمـارـيـةـ كـانـ تـحـتـ سـيـطـرـةـ المـسـلـمـيـنـ .. وـنـتـيـجـةـ هـذـاـ الـوـضـعـ ، نـظـرـ الـمـسـلـمـوـنـ إـلـىـ هـذـاـ الـانـقـلـابـ الـفـكـرـيـ الـغـرـبـيـ عـلـىـ آنـ قـوـةـ مـعـادـيـةـ لـهـمـ تـرـيـدـ إـعـمـالـ السـيـوـفـ فـيـ رـقـابـهـمـ وـإـنـزـهـمـ عـنـ عـرـشـ الـعـظـمـةـ وـالـجـدـ . وبالـتـالـيـ فـلـمـ يـرـواـ الجـانـبـ الـمـفـيدـ الصـالـحـ لـلـانـقـلـابـ الـغـرـبـيـ (ـفـيـ الـجـالـ الـعـلـىـ)ـ بـلـ جـعـلـوـهـ بـالـجـمـلـةـ خـصـمـاـ اـقـتصـادـيـاـ وـسـيـاسـيـاـ .

كان القرن الرابع عشر الهجري أول قرن في تاريخ الإسلام كله يوفر إمكانية نشر دعوة التوحيد بيسر وسهولة ، وبطرق ملائمة ، بينما كان دعاة الإسلام في الزمان الماضي يقومون بهمها هذه الدعوة في وضع غير ملائم يسوده جو التوتر والمعارضة والاضطهاد .. وكذلك لأول مرة فقد برهن الدين الإسلامي على أنه دين موثوق به بالمقاييس التي وضعها الإنسان نفسه في هذا العصر الحديث ، فكان من مقتضيات العصر أن يقدم ويعرض بكل الأدلة العلمية حتى لا ينكره إلا جاحد متعنت .. وكذلك لأول مرة في هذا القرن برزت إلى حيز الوجود وسائل النقل والمواصلات المتقدمة التي كان يمكن استعمالها لنشر رسالة الإسلام على نطاق دولي وفي أقصر وقت ممكن ، ولكن لأن الأم التي جلبت لنا هذه الطاقات الجديدة أصبحت خصماً سياسياً بطريق (الصادقة) وبالتالي أصبح العالم الإسلامي كله ذا نفسية انهزامية ، وعمت فيه موجة الاستنكار والاستهجان للدول الغربية ، وغاب عن نظر المسلمين ضرورة امتلاك ما ينفعهم من هذا الانقلاب الغربي الجديد ولكن الواقع أن الله قد فتح للMuslimين إمكانات جديدة من خلال هذا الانقلاب ، وكان يمكن استعمالها لمقاصد الدعوة الإسلامية ، وللقيام بغزو فكري للدول الأوروبية . ولو تفطنَ المسلمين إلى هذه الحقيقة ، وأخذوا خطوة حكيمية لظهور من جديد ذلك الحادث الذي ظهر في القرن الثامن الهجري في شكل اعتناق (التار) الفاتحين للإسلام .

وما زاد الطين بلة أننا لم نقم بإنشاء رابطة إسلامية صحيحة مع الأمم الأخرى . إن جميع الأمم والأقوام إنما هي حقل خصب للدعوة الإسلامية ولكن النفسية السلبية الناتجة عن الاستنكار والامتناع أدت إلى إهمال هذه الحقيقة . فإن الإسلام الذي عرفته كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة على اختلاف أساليبها ، كان إسلاماً قومياً ، وليس ديناً نزل لهدایة العباد

لإخراجهم من الجحيم وإدخالهم الجنة . إن العجز الذي سيطر على الحركات الإسلامية وجعلها لا تميز بين (الغرب الاستعماري والغرب ذي الطاقة الجديدة) هذا العجز سبب الحيلولة دون تعبئة الإمكانيات الجديدة لخدمة الدعوة ونشرها في العالم ، بل على العكس راح المسلمون – في بعض الأحيان – يضطجعون بأنفسهم ، وبنفاثتهم الممتدة إلى ألف سنة دونوعي أو عقل . وقد قدر لهذه التضحيات أن لا تعود بفائدة في عالم الأسباب ، فلن هذه السياسة غير الوعائية للحقيقة استمرت إلى فترة زمنية طويلة وألحقت هذه السياسة ضرراً بنفسية المسلمين فصار عالم الإسلام بحملته مصاباً بجنون العظمة المفروضة « Paranoia » وكان من جراء هذا أن لا يسمع لأى رأى مخالف ولا لأى رأى جديد رشيد .

مسئوليّة ولا فخر

قام رئيس باكستان الجنرال (محمد ضياء الحق) في مستهل أكتوبر سنة ١٩٨٠ م بالقاء خطبة في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، استغرقت ساعة ونصف الساعة ، وكانت خير معبر عن مشاعر مليار مسلم في العالم – على حد تعبيره – وهذه فقرة من كلمته المكتوبة ، جاء فيها :

« بمناسبة بداية القرن الخامس عشر المجري تغتر الملل الإسلامية من جديد على فخرها بدينيها وبعظم حضارتها ونظمها الاقتصادية والاجتماعية المنفردة – وهي واثقة بأن بداية هذا القرن ستسجل فاتحة عهد جديد .. وأن مبادئها السامية للأمن والسلام والعدالة هي خير للإنسانية وهي سبيل التفاهم بين الشعوب ، ولسوف تتمكنها من أداء دور عظيم لإسعاد الإنسانية »

كان الجنرال (محمد ضياء الحق) يشيد بال المسلمين ويثنى عليهم ، ولكن في هذه الإشادة يمكن سر مأساة المسلمين .. لقد ذهب الفخر

بجهودهم في هذا العصر أدرج الرياح .. إن العلم الإسلامي اليوم مليء بالنشاطات والحركات باسم الإسلام ولكن هذه الضجة كلها تبني على نفسية الغرور والاستعلاء لا على نفسية الشعور بالمسؤولية .

مع أن القرآن يحذرنا من أن تكون الأعمال الدنيوية دافعها الفخر والاعتزاز « ولا تفروا بما آتاكم » ويطالبنا بأن تكون جميع الأعمال دافعها الشعور بالعبودية « وما خلقت الجن والإنس إلا لبعذون » .

إن الفخر يثير الأنانية وحب السمعة ، وإن السمعة تثير روح التواضع والشعور بالمسؤولية ، إن الإسلام عقيدة قامت بتحذير الناس من النار وإعدادهم لجنة عرضها السوات والأرض أعدت للمتقين .. لكن كثيراً من حركات العصر الحديث المنسوبة إلى الإسلام قامت لإحراز المكانة السامية في الدنيا . وقد أبرزها إلى حيز الوجود (الشعور القوى) المتلطف برداء الإسلام .. فصار الإسلام للمسلمين مجرد باعث للاعتزاز والافتخار وليس صراطاً مستقيماً للآخرة ، وناهيك بهذه الحقيقة دليلاً على أن بعض الحركات الإسلامية مجرد حركات قومية وأيست حركات إسلامية خالصة . إن الدين الذي يثير مثل هذه الضجة في المسلمين اليوم إنما هو دين (قوى) أو نحلة مذهبية ، وليس ديناً إلهياً ، وإن مثل هذا الدين القوى يخلق نفسية الفخر والغرور ، بينما الدين الإلهي يخلق النفسية المعبأة بالشعور بالمسؤولية نحو البشرية كلها .

إن من شأن الإسلام الحقيقي أن ينشئ التواضع في الإنسان ، فالكبير أساس الشر ، والتواضع أساس الخبر .. فإذا أتمن الإنسان بالتواضع واللين استيقظت فيه خصائص خوف الله وطلب الفوز في الآخرة ، وحب التكافف والأمر بالمعروف ، والعفو والتسامح ، والاهتمام بالأعمال البناءة ، والشعور

بالمسئولية ، وعندما يتكون عدد كبير من هؤلاء الأبرار الآخيار في مجتمع ما فإنه يحصل على أعلى مكانة ، وعلى العكس من ذلك الإسلام الملي والقوى فإنه يخلق نفسية الفخر والماهأة ، ويتسم أفراد هذه النفسية بسمات الأنانية ونسوان الآخرة ، ومحاسبة الآخرين بدلاً من محاسبة النفس ، وإن هذه السمات تفضي إلى التزاغ والصراع ، ولا يرغب أصحابها في الأعمال الطيبة البناءة ، بل يحبون الرياء وطلب السمعة ، ويحبون الإمامة والقيادة بدلاً من حب الانصياع للحق ، وهم يتحدون عن أعمالهم التافهة بكلمات مجلجة لإشباع مركب النقص القائم على شعورهم بالاستعلاء .

وفي مثل هذا المجتمع يصبح الإسلام قولاً يقولونه وليس عملاً يوْدونه . وهذا المجتمع المنافق يستحق غضب الله ولا يستحق نصرته وتأييده .. إننا نرى أن الحركة الصهيونية لليهود تستهدف استعادة الجد الإمبرائيلي القديم وفي الهند تتوخي منظمة آر إس إس « R. S. S. » الهندوسية استرجاع الماضي الرائع .. وهذا قد دفع بعض المسلمين إلى القول بأن المسلمين أيضاً تاريخاً مجيداً يستحق الفخر والذكر وبالتالي استنفدت الحركات الإسلامية أهتمم بغية إشادة (قصر الجد) على أنقاض الجد الغابر ، ونحن نعرف أن الحركات اليهودية والهندوسية ليست حركات دينية بالرغم من استعمالها اصطلاحات دينية ، فكذلك حال الحركات الإسلامية الناشئة عن مثل هذا الشعور والتي اقتفت أثر اليهودية والهندوسية . وهذه الحركات لن تكون حركات دينية مجرد توضيح أهدافها بمصطلحات وكلمات دينية . وفي الإسلام تقوم الأعمال على أساس النيات فإن الحركة التي تخرجها إلى حيز الوجود – نفسية أو قومية أو وطنية – سوف تكون عند الله أيضاً حركة قومية أو وطنية ولن تكون حركة دينية بحثة مجرد استشهاد القائمين عليها

بآيات من القرآن وببعض أحاديث الرسول ، ولن يتحقق مثل هذه الحركات وعد الله الذي يختص بالحركات الإسلامية الخالصة .

إن الشجرة الحقيقية تنمو بذورها ولا تنمو بذور غيرها ، فهكذا تصل إلى النتائج الموعودة من الله ، تلك الحركة التي نهضت وقامت على أسس إسلامية وليس تلك التي نشأت ونمّت نتيجة العوامل أو الحوافز القومية ولو عبرت عن نفسها في مصطلحات إسلامية وكلمات دينية .

إن الحركات الإسلامية تمثل المعرفة الإلهية التي تهدف إلى تمثيل الآخرة في الحياة الدنيا ، وإقامة الأخلاق الإنسانية والكونية في المجتمع البشري .
وخلاصة القول .. إن الحركة الإسلامية حركة تقوم على حقيقة أبدية وليس حركة ناجمة عن رد فعل مؤقت متاثر بالأحداث القومية .

والمؤمن دوحة باستقمة تنمو في أرض الله وجماعة المؤمنين هم روضة الله الغناء ، والذين يصفون ثوراتهم (القومية) وحركاتهم الطائشة بالدعوة الإسلامية إنما يريدون أن يقولوا إن أشجارهم النذابة اليابسة هي روضة الله .

لهم يخترعون أساليب الاستغلال باسم الله .. بينما هم لا يستحقون أدنى تقدير .. لا من الله .. ولا من الناس ..

الإسلام يغلب

إن أهم مسألة تستقطب عقول المسلمين اليوم في العالم كله هي مسألة البعث الإسلامي من جديد ، ولكن لو رأينا ما أتخنوها من مناهج لاستعادة الحد الغابر لعرفنا أن لدى المسلمين تطلعًا غامضًا منفرساً في قلوبهم ، ولكن ليست لديهم الطرق المرسومة المدروسة لاسترجاع الماضي وتحويله إلى حقيقة واقعة في الحاضر .. ويفتقرون إلى التوعية الصحيحة الواضحة .

وللمسلمين فيما يفكرون مذاهب ومدارس ، فمن حالم يحلم بأن تعمير المساجد يتحقق بطريقة نشر بعض الأساطير والأحاديث الموضوعة في فضائل العبادات ، ويظن هؤلاء أن هذا يكفي المسلمين في الدنيا مغبة العمل والجهاد ، وأن الدنيا بهذا الأسلوب ستتول تلقائياً إلى كنف المسلمين . ومثل هؤلاء .. أولئك الذين يعتقدون أن لهم على الرق والتعاوين لإزاحة جبال هملايا عن مكانها ، ولرب خطيب ساحر يرى أن حل مشكلات المسلمين مضمون في الكلمات المزخرفة والخطب الرنانة ، ولا يدرك أن هذا الكون الذي خلقه الله خاضع للنوايس المحكمة ، ولا تعود هذه الجماعة والقيمة وطنين الكلمات بفائدة تذكر ، ولا تعي في إثبات حق .

ولا يقل عن سذاجة هؤلاء أولئك المتسكعون الذين يزعمون أن استرجاع نقاء الإسلام وصولته يمكن أن يتحقق بتجريد زعيم من السلطة أو الإطاحة بعرش من العروش ، أو جر حاكم إلى المشنقة .. وهو لا يستطيعون استيعاب أن المسألة ليست مسألة إخضاع شخص أو أشخاص ينادون الإسلام والقضاء عليهم بطريق أو آخر ، بل هي مسألة إخضاع القوى العالمية التي قهرت المسلمين وشوهدت مفاهيم الإسلام .. فالامر صراع حضارات وليس قضية بعض الأشخاص الزائفين .

قانون تغيير الحكم

يبين لنا القرآن أن الله يوئي الملك من يشاء ، وأنه سبحانه مالك الملك وهذا يشير إلى أن سيطرة قوم على حكومة ليس أمراً بسيطاً عادياً . بل يكون بقضاء الله وقدره مباشرة ، وانتصار قوم يكون دائماً على حساب قوم آخرين ، ولأجل إبراز هذا الواقع المهم يجب حدوث تغيرات واسعة جذرية تجعل الظروف مواتية لصالح جماعة وغير مواتية للآخرين .

ونظراً هذه التغيرات غير العادية في الحياة الاجتماعية لأسباب فوق العادة ، و يحدث الانقلاب أياً كان نوعه لأسباب كونية لا تقع عادة تحت سلطة شخص أو جماعة ، وعلى سبيل المثال فإن الثورة الاشتراكية في روسيا قد تولدت عن ظروف وأوضاع ناجمة عن الحرب العالمية الأولى . ويار الحرية الذي جرى في متضيق هذا القرن وحرر معظم الدول الآسيوية والإفريقية من ربقة الاستعمار الغربي كان نابعاً من الأحوال الطارئة التي كانت أكبر نتائج الحرب العالمية الثانية ؛ ولم تكن في قدرة الحركة الاشتراكية أو الحركة الوطنية أن تذكى الحرب على نطاق عالمي لو لم تظهر الحربان العالميتان ..

وعلى هذا المقياس يمكن القول بأن مرد الفتوح الإسلامية السريعة في القرن الأول الإسلامي يرجع إلى سريان الضعف والوهن في السلطتين ، الإيرانية والرومية بسبب حروب طويلة ناشبة بينهما ، والعلوم أن نشوب الحروب التي دكت القوميتين العظيمتين كان في يد الله وليس في قدرة الإنسان ..

ونحن نعلم من القرآن أن التغيرات السياسية التي تخضع لها الشعوب نظراً بحكم قانون الدفاع « ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسد

الأرض » وبالتالي فإن هذه التغيرات لابد منها للإطاحة بنظام مستبد ، وأستبدال نظام آخر به ، يكون خيراً منه .

إن التغيرات العامة تأتي من هذا القبيل وهي تغيرات سلبية النوع أما التغير الإسلامي فيخرج إلى الوجود لأغراض إيجابية وهذا التغير نعمة ينعم الله بها على عباده الصالحين ، وهو جزء من أثبتوا جدار لهم واستوفوا شرائط الصلاح والتقوى : قال تعالى :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ مِنْ دِيْنِهِمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ وَلَيَبْدَلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » (النور : ٥٥) .

والحق أن البعث الإسلامي الجديد ليس أمراً هيناً يحدث بحركات سياسية طائشة عشوائية ، وإنما هو قضية مقاومة لاستبداد الكفر وسيطرة الشر . وهى مسألة تحويل الحضارة الغالية عن مكانها القيادي . وإحلال حضارتنا الإسلامية المغلوبة في مكان القيادة .. إنها مسألة استرجاع عهد تاريخي وقضاء على عهد تاريخي آخر ، وخلاصة القول أن المسألة أعقد وأكبر من تصورات المتهorين ، ولا يمكن تسويتها بدون قضاء الله وطاقاته غير المرئية .

إن الأمر يحتاج إلى (طوفان نوح) الذي يكتسح ذريحة الشيطان ، كما أنه يحتاج إلى آية موسوية تودي بحياة فرعون وملته وتفرقهم في اليم . كما يحتاج ذلك إلى ملائكة الله ليترلوا من السماء ويجمعوا طواغيت الكفر في ميدان « بدر » ويخضعوهم لل المسلمين ، وهذا معناه أنه لابد من عون الله وأنه لا يمكن للمسلمين أن يحققوا النصر – في هذا العصر ومع هذا الوضع العالمي المعروف – بجهودهم فقط -- فرعونة الله – هي الكفيلة بتحقيق النصر .

حقيقة أنه لا مرية في أن المسلمين سيسيرون بأقدامهم إلى الأمام ، ولكن الله سيهوي كل الوسائل التي يصلون بها إلى مكانة مرموقة في وقت أقصر ، وليس هذا التغير العظيم في قدرة الإنسان وحده .. بل إن الأحوال في يد الله يقللها كيف يشاء .

لقد أصبح المسلمون مغلوبين على أمرهم في مشارق الأرض وغاربها ولا يمكن أن يكون الحل للتخلص من هذه الحالة في مقدور حركات عادية وإنما يمكن الحل في ظهور أحوال غير عادلة ، وبالتالي فلا يمكن تحقيق أحلامنا وأماننا إلا إذا جعلت الإرادة الإلهية جهودنا مواكبة لحركة التاريخ وأحدث رب المشرقين والمغاربين شقوقاً ومنافذ في الصخور السياسية والمدنية التي تقف في وجهنا .

إن خالق الأرض واسموات لن يتركنا وحدنا ، ولسوف يعيننا إذا استحققنا نصره . بالرياح والعواصف التي تهب لتقتلع حيام الأعداء ، وتعهد الطريق للملة الإسلامية ولسوف ينزل الله المطر من السماء ليغمر الأرض بالخصوصية التي تيسر الوسائل الصحيحة للحياة في جانب ، بينما تحدث زلزلة تندثر بها مرفعات وترتفع منحدرات في جانب آخر .. ولسوف ينزل الله الأمن على جيشنا المسلم ، وينزل رعباً على الجيش غير المسلم عندما تدور رحى الحرب .

وبهذه الأ Maddad الإلهية بلغ الربك الإسلامي غاياته المنشودة في عهده الأول ، لن يبلغها في الوقت الحاضر إلا بعودته هذه المعونة الإلهية .

الدعوة إلى الله ضمان للنصر

ولاستحقاق هذا النصر من السماء يجب أن يتميز المسلمون بعزة واضحة هي القيام بالدعوة الإسلامية والإصلاح الذاتي وتزكية النفس . وهذه هي

المسئولية الكبرى الواقعة على أهل الإيمان .. إنها نفسها هي الشهادة على الناس التي يترجمها حديث الرسول (أنت شهاده الله في الأرض) ، فإن موهّلات النصر والتّكين من رهونه بشرط القيام بمسئوليّة الدعوة .

إن المسلمين يعيشون اليوم وفي كل العصور مع شعوب أخرى ، حيث تنهب جماعة جماعة أخرى وحيث تقوم طبقة بنشاط مكثف لتعطى على طائفة أخرى – وإن هذا التصارع يخلق مشكلات للمسلمين ، وفي كثير من الأحيان يتعرضون لاعتداءات جماعية أخرى غير مسلمة ، وينتج عن ذلك أن ثائرات المسلمين تثور ضد شعوب أخرى عندما يجدون أنفسهم في خطر ويريدون الجهاد ضدهم ، ولكن إذا تأملنا في هذه المسألة من المنظور القرآني فسوف نجد حلاً مختلفاً عن الحل الذي يطرحه دعاة الثورة .

فإن القرآن يعلمنا أن الأزمة مهما كانت جسيمة أو تعود بخسارة كبيرة في الأموال والأرواح فإن حلها هو بالدعوة إلى الله ، وبالتالي ، فإن جهود المسلمين يجب أن تكون مرتكزة على الدعوة إلى الله ، وينبغي أن لا تكون الدنيا هي المحور الأساسي لاتهام المسلمين وغایتهم الكبرى ، وهذا هو الدرس العظيم الذي وجه إلى الأمة الإسلامية بواسطة الرسول في القرآن : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » (المائدة : ٦٧) ، وثبتت لنا هذه الآية بكل وضوح أن سر العصمة من الناس كامن في الدعوة إلى الله . فكلما تعرض أهل الإيمان لخطر الأمم الأخرى واستشعروا خطر الاستعباد عليهم أن يتوجهوا مخلصين إلى الدعوة إلى الله .. فهذا هو العمل الذي ربطه الله ببرادته ووعد بأن يهبيه ، من أجله أسباباً غير عادلة تشكل سلماً ينتهي بال المسلمين إلى النجاة والفلاح .

إن الميزة التي يتفرد بها العمل في حقل الدعوة هي أن الطبيعة تتحول إلى حلية له بصفة دائمة ، فمهما كان الناس مختلفين على مستوى العصبية والعداء فإنه – على مستوى الطبيعة – يكون نداء الحق نداء (ضمير) لجميع الناس ، إن الدعوة إلى الحق دعوة مختفی معناها في كل قلب ، وتضمه كل فطرة ، وليس دین الله وطبيعة الإنسان إلا تعبيرين لحقيقة واحدة ، فقد جبل كل إنسان على تصور خالقه في سويدة قلبه ، وإن باطن كل إنسان مفظور على أن يلقى بنفسه أمام خالقه وما لاه .

وبالإضافة إلى هذه المساعدة التي تقدمها الفطرة ويقدمها النداء المختفي بالضمير ، فإن ثمة مساعدة تاريخية أخرى وتتلخص هذه المساعدة في أن جميع الأديان قد فقدت نقاءها الأصلي نتيجة تحريفات متبعها ، وتبدلت إلى درجة فقدت معها تلك المطابقة التي وضعها الله بين الدين الحقيقى والطبيعة الإنسانية السليمة ، والنتيجة الوحيدة هي أن جميع الذين يؤمنون الآن بدین غير الإسلام ، إنما يؤمنون إيماناً تقليدياً ، وهم يقفون على أرض العصبية لا على أرض التصديق الطبيعي ، لأن التصديق الطبيعي لا يوجد عندهم على الإطلاق .

إننا إذا نجحنا في إزاحة ستار العصبية فستقف الأديان الأخرى في العراء ولن يكون أمام الناس سبيل إلا أن يستظلوا بشجرة الإسلام الوارفة الظلاء .

أمثلة تسخير الدعوة

يمكن سر حياتنا في الدعوة إلى الله ، وليس هذا أمراً نشازاً ، بل هو أمر يؤكده التاريخ الإسلامي تأكيداً واضحاً .

لقد بدأ النبي – صلى الله عليه وسلم – يقوم بمسؤولية الدعوة في مكة . ولكن أرض مكة بدت أرضاً جديداً لا ينبت فيها نبات ولا تلين فيها

قلوب للإسلام ، وهكذا انقرضت ثلاثة عشرة سنة دون أثر يتناسب معها حتى لقد كان يبدو أن تاريخ الإسلام سينتهي بمكة كما بدأ بها ، ولكن الأسباب أصبحت مواتية بصورة مدهشة في المدينة ، فأذمع النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحبه أن يهاجروا إليها ويقيموا هناك مركزاً للإسلام ..

والسؤال هنا : لماذا ظهر هذا المكان الجديد للدعوة؟ ..

والجواب واحد : لقد ظهر هذا المكان الجديد بطريق الدعوة والتبلیغ وذلك بفضل جهود بعض أصحاب النبي - صلی الله علیه وسلم - وعلى رأسهم مصعب بن عمیر ، فبفضل مصعب انتشر الإسلام في المدينة حتى جاس خلال الديار : « حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون (سيرة ابن هشام ،الجزء الثاني : ٤٧١) .

فهكذا افتتحت أبواب جديدة لنشر الإسلام في ظروف قاتمة باعثة على اليأس والقنوط .

ولئن كانت الهجرة قد وفرت للمسلمين منطقة خاصة لهم ، فإن أعداء الإسلام قد أجيجوا نيران الحرب من جديد ، مما أحدث للمسلمين وضعا خطراً جداً ، وأصبح الإسلام محفوفاً بالخطر حتى كاد الأعداء يطفئون نور الله بأفواهم ، ولكن القيام بواجب الدعوة قد فتح أبواباً جديدة للإسلام مرة أخرى ، وهذه الأبواب تمثل في صلح الحديبية الذي كان له فضل إنتهاء التنازع والتصارع والمصادمة ، فعادت الحالة هادئة طبيعية مكتن المسلمين من استئاف الدعوة مما أدى إلى مضاعفة عدد المسلمين إلى أربعة أضعاف في فترة تقل عن سنتين ، وألقي الوضع الجديد للدولة الربع في قلوب زعماء قريش ، فألقوا الأسلحة عند فتح مكة دون قتال .

ولقد ظهرت بعد فتح مكة مسألة أخرى مثيلة للمسألة السابقة ، وهي مسألة ثقيف فقد كانت هذه القبيلة متمرة جداً ، وكانت تعيش في مدينة الطائف التي كانت محاطة بالجبال ، ولذلك كان من الصعب شن الهجوم على هذه المدينة . ولم يكن الطريق الذي أخضع قبيلة ثقيف في هذه الآونة إلا طريق الدعوة : فدخلت قبيلة هوازن - التي بلغ عدد أهلها ستة آلاف - في الإسلام وكانت هذه القبيلة حلقة لقبيلة ثقيف ، وكان اعتناق هذه القبيلة الإسلام بطريق تأليف القلوب ، ولما اعتنق جميع أفراد قبيلة هوازن الإسلام أحس ثقيف بأن أجنبتها قد تكسرت ، ولم يبق أمام أهلها مجال إلا أن يذهبوا إلى المدينة ويعتنقوا الإسلام ، ويلتفوا حول رايته .. وهكذا كان باب الطائف مغلقاً أمام الحملة العسكرية ولكنه أصبح مفتوحاً أمام زحف الدعوة الإسلامية .

وعندما يصل التاريخ الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري ويختاز مراحل مختلفة خلال هذه الفترة ويدخل (التتر) العالم الإسلامي ، نجد التمار يقيمون الدنيا ويععدونها ويهلكون الحرف والنسل ويعملون السيف والرماح في عنق عشرات الآلاف من المسلمين .

لقد خرج جنكيز خان من آسيا العظمى عام ١٣١٦ م على رأس جيش يربو على مائتي ألف جندي يشieten الوحوش والسباع .. وقد عمل هذا الجيش على النهب والسلب والقتل ، وقد دمر جنوده العراق وإيران وتركستان ، حتى ساد العالم الإسلامي كله الفزع والملع والخوف والروع ، وغشيه موج من الوحشة .

ومرة ثانية في عام (١٣٥٣ م) يزحف جيش ترى آخر بقيادة حفيده هولاكو ، ذلك الذي زحف إلى العالم الإسلامي زحفاً يشبه السبل

العم ، والذى ذهبت صحبة زحفه دول إسلامية بأكملها ، ومشت جيوش هذا الرجل فوق عشرات الألوف من المسلمين فى وقت كانت فيه هذه الدول الصغيرة تحاول رفع مجد الإسلام وعظمته فى حدود طاقتها .

ويضيف لنا المؤرخ المسلم (ابن الأثير الم توفى سنة ٦٣٠ هـ) هذا الواقع الأليم ، والذى شهد به عينيه ، بهذه الكلمات التى يقول فيها :

« .. لو قال لك أحد إنه لم يحدث مثل ما حدث في هذا اليوم منذ ولد آدم عليه السلام إلى يومنا فلن يكون مخطئاً » ويروى مؤرخ غربى هذا الحادث بهذه الكلمات : « لقد سقطت السماء على الأرض ، وأبادت ما كان عليها » . . . Jenghiz Khan, by Harold Lamb P. 266

ففي هذه اللحظة الحاسمة كانت قوة الدعوة الإسلامية هي التي أصبحت سداً ضد سيل التيار ، فبدأت قلوب التتر تفتتح على الإسلام – بعد هزيمة المسلمين العسكرية – بفضل هذه الدعوة المباركة ، حتى إن الإسلام ملك قلوبهم فاعتنق أكثرهم الإسلام ، وهكذا صاروا أمناء الإسلام وحماة المسلمين بعد أن كانوا أعدى أعدائهم ، فكيف تتحقق هذا النصر يا ترى ؟ وهل كان هناك رجال يعملون على نمط النظم التبشيرية السرية ، وساهموا في نشر الدعوة الإسلامية ؟ أم كان ذلك فقط رحمة من الله تبارك وتعالى توجهت إلى قلوب التتر فوضعت في قلوبهم حنيناً للإسلام والمسلمين ؟ ..

إنها الدعوة والرحمة في سياق واحد ، وإن التاريخ ليقدم لنا ما نطمئن به قلوبنا ، وما يدللنا على كثير من الجهود التي قام بها رجال الله الصالحون لجذب قلوب هؤلاء التتر إلى دعوة الإسلام ، غير أن الذي لا جدال فيه أن الانتصار على التتر لم يتم تحقق بالقوة العسكرية بل بفضل (م ٥ – قضية البعث)

قوة الدعوة الإسلامية ، فلو لم يعتنق التتر الإسلام في تلك اللحظة الحاسمة لكان المسلمون أعزز – في عالم القوة والأسباب والوسائل – من أن ينتصروا على التتر أو يقوموا بسد هجماتهم .

وقد اعترف المؤرخون كلهم بقوة دعوة الإسلام فيما كتبوا عن التتر ونقتبس هنا ما رواه باحثان من غير المسلمين .. يقول توماسن أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » :

T. W. Arnold, *The Preaching of Islam.* (1896) p. 5.

« إن المملكة الإسلامية العظيمة قد انهارت على يد التتر في سنوات معدودة وقد انكسرت شوكة الإسلام السياسية ، ولكن استمرت غلبة الروحية ، وهي لا تزال مستمرة دون انقطاع ، ولما خربت قبائل المغول دار الإسلام وداست على مجد الخلافة العباسية ، وأراقت الدماء أنهاراً في شوارع بغداد ، كان الإسلام قد تمكن في جزيرة سومطرة وببدأ يدخل جزر ماليزيا رافعاً رأسه متتصراً مستولياً على قلوب أهلها ، لقد حقق الإسلام أيام احتطاطه السياسي انتصارات روحية بارزة للغاية .. فخلال قبرتين انتصر الإسلام روحياً بعد أن هزم عسكرياً .. أولئك أئام القبائل التترية التي انتصرت على أهله واستولت على دياره ، وثانيهما وقعت في القرن الحادى عشر الميلادى حين هاجم السلاجقة الأتراك الأئم الإسلامية .

ولكن هذه القبائل السلجوقية المبغضة للإسلام والمسلمين ، والغالبة ، اعتنقوا دين الإسلام طوعاً ودون إكراه . !!

يقول فيليب حتى في كتابه « تاريخ العرب » :

« .. في أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدا أن الإسلام سوف يفقد جيوبته للأبد عندما زحف رماة القبائل المغولية غير المتدينين على

حدود بلاد المسلمين في الشرق وواجه المسلمين من الغرب حملة الصليبيين من أعداء الإسلام ، ولكن تغيرت الأحوال والموازين في أواخر نفس القرن عندما قذف المسلمون أعداءهم وأعداء الإسلام على الجبهة الغربية في أمواج البحر ، وأعلن الأمير السابع من بين الأمراء التر الأحد عشر قبول الإسلام وأمر بأن يكون الإسلام دين الدولة ، ولو أن أكثرهم يميلون إلى الديانة المسيحية وتزوج المسلمون بالنسوة المسيحيات ، فكان هذا الانتصار جديراً بأن يفتخر به أهل الإسلام وأبناؤه ، وحقق الدين الإسلامي نصراً في معركة أخفقت فيها الأسلحة المادية ، وهو نفس الحادث الذي حدث أثناء حملة السلاجقة على المسلمين . وبعد نصف قرن من الزمان أو أقل ، بدأ « غازان » حفيد هولاكو بعد أن اعتنق الإسلام بمحاول إحياء (نفس) الحضارة الإسلامية التي واجهت دماراً وخراباً بيد جده العاشم الظالم ، وقد وقف نفسه ومalleه لهذا الغرض .

درس من التاريخ

وقع حادث (التر) الذي كان بمثابة القيامة لمن شاهده بيته في أيام الإمام تقى الدين ابن تيمية رحمة الله (٧٣٨ھ) فشارت حمية هذا الإمام بعد ما شاهد انتكاسة مجد الإسلام فشمر عن ساعد الجد من منطلق الخين إلى الجهاد ودعا المسلمين في الشام ومصر إلى الجهاد وإعلاء كلمة الله ، وأعلن أن « الحرب أنفي للحرب » فخرج في عام ٧٠٣ھ مع السلطان الناصر ملك مصر ثائراً على التر إلى ساحة القتال ، وقد حقق في الأيام الأولى من خروجه انتصاراً عسكرياً على التر ، ولكن غالب عليهم التر فيما بعد ، ولحق الإمام ابن تيمية بربه بعد ما عاش في قلعة دمشق سجيماً ، وقضى أياماً من حياته في التدريس والتأليف .

لقد كان الإمام ابن تيمية يريد الغلبة على التر بالقوة العسكرية ، ولكن حلمه لم يتحقق عن هذا الطريق ..

وفي نفس الوقت الذي فشل فيه الطريق الحربي ظهرت قوة الدعوة الإسلامية ، وهي التي قضت على هذه المشكلة ؛ بل حولت أعداء الإسلام إلى أحباء له ، بعد ما كانوا قد تعااهدوا على قمع جذوره ، فتجربة القرن الثامن المجري هذه كانت ولا تزال درساً لل المسلمين يعلمهم أن النزول عن الإسلام وإعلاء كلمته هو أهم واجباتهم الأولية . وعائهم أن يعرفوا وسائل تحقيقه ، ولكن المسلمين لم ينتفعوا بهذه التجربة التي قدمها هذا الحادث التاريخي الشهير ، وهذا مما يثير الدهشة لدى كبار الباحثين ، وفي أيامنا هذه يواجه الإسلام من قبل أعدائه الجدد « تر العصر الحديث » مشكلات وصعوبات ، فهض زعماء المسلمين بأجمعهم ضد المهاجمين الأعداء ، وخاضوا معارك سياسية ، لكن لم يظهر في هذه الفترة الطويلة زعيم واحد منهم يحسب الدعوة إلى الإسلام جهاداً حقيقياً ويكرس حياته لها .

الإسلام في العصر الحديث

لقد هجم نابليون بونابرت في عام ١٧٩٨ م على مصر والشام ، وكان التجار البرتغاليون قد دخلوا إلى الهند والدول الآسيوية الأخرى قبل ذلك بقرنين ، ثم بدأ زحف الشعوب الغربية الأخرى ..

وهكذا استولى في القرون الأخيرة الماضية البرتغاليون والمولنديون والفرنسيون والبريطانيون على العالم الإسلامي كله ، فانقرضت أولاً دولة (المغول) في شبه القارة الهندية ، ثم (الدولة العثمانية) العظيمة آخر خلافة إسلامية عالمية ..

صحيح أن الاستعمار السياسي قد انتهى في القرن الحاضر ، ولكنَّ
الغرب - لا يزال يسيطر على دنيا الإسلام بواسطة الاستعمار التقني ؛
فإن المسلمين يعتمدون على الدول الأوروبية في كل أساسيات حياتهم من
شراء الأسلحة إلى طباعة القرآن الكريم ..

ومن المعروف أنه ما إن بربت مسألة الاستيلاء الغربي على الشرق
الإسلامي حتى ظهرت في العالم الإسلامي حركات كثيرة للدفاع عن الإسلام
ولا تزال هذه الحركات باقية . وإن القوة الدافعة الأساسية التي كانت تعمل
وراء هذه الحركات الإسلامية كانت مسألة طرد الاحتلال الأجنبي ،
فإن هذه الحركات مهما كانت مختلفة فيما بينها ، فقد وجد بينها أمر مشترك
وهو أنها كلها حركات سياسية تحمل وجهة النظر السياسية ..

ولإذا أردنا جمع هذه الحركات المختلفة والمتباينة فإنه يمكن لنا جمعها
تحت رأية (الإيمان المطلق بالحل السياسي) للمسائل الناجمة عن الحكم
الاستعماري .

لقد ذهبت جهود هذه الحركات أدراج الرياح ، وبالرغم من التضحيات
الجhma بالأموال والأرواح ، فلم يتمكن المسلمين من تحقيق النجاح حتى
في المستوى السياسي ، وهو تحقيق الوحدة السياسية العالمية بين المسلمين .

لقد بدأت حركة الاتحاد الإسلامي ، أو ما عرف بالمؤتمر الإسلامي ،
ك رد فعل لغروب الدولة العثمانية وسقوط دولة المغول قبلها ، وانقسام
العالم الإسلامي الواسع إلى دولات وحميات ، وقد بذلك المسلمين في
سبيل التخلص من الاستعمار السياسي الغربي دماءهم وأموالهم وأنفسهم ،
ونفاثاتهم بسخاء ، ولكن الواقع الأليم المرير هو أن الغرب حقق سيطرته
عليهم مرة أخرى بعكره ودهائه عن طريق العلم والتكنولوجيا ، بينما استند

ال المسلمين كل طاقاتهم في سبيل الاستقلال عن الاستعمار الغربي ، ولكن عندما تحرروا من الاستعمار الأجنبي ، وجدوا أنفسهم – مرة أخرى – خاضعين ورائجين أمام عصابات الجاحدين ، والثائرين على الإسلام ، والمتذمرين لفضله .

لقد ضحى المسلمين أكبر تضحية في سبيل إقامة « دولة إسلامية » خاصة بال المسلمين ، ولكن عندما تحقق هذا الحلم ، أصبح أبناء البلد الواحد منقسمين إلى بلدان عديدة مختلفة .

لقد انحدر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ضد إقامة دولة صهيونية في فلسطين ، وبذلوا كل غال ورخيص ، وما كانوا يملكون شيئاً من وسائل أو أساباب لاسترجاع الأراضي المغتصبة ، وبالتالي كان لابد أن تقوم إسرائيل ، وأن توسع حدودها وطاقاتها على حساب عدد كبير من الدول العربية .

لقد فقد المسلمين كل شيء في كل مجال من مجالات حياتهم في هذا الزمان ، ولم يحصلوا على شيء ، ولكن على حد تعبير الإنجيل : (إن الأجير يجمع أجره في كيسة متقوبة) .

والغريب أنه في مثل هذا الجو القاتم المثير لشاعر اليأس والنقطة : لا يزال يوجد مجال يزحف فيه الإسلام ، بينما يفشل المسلمين بالرغم من تضحيتهم وجهودهم في الحالات الأخرى ، ولكن في مجال الدعوة الإسلامية – ومع إهمال المسلمين لها – لا تزال النتائج مشجعة حيث بدأ المبذدون والطبقات المستضعفة في الهند وكثير من المفكرين الأوروبيين يعتنقون الإسلام وبدأت الطبقة المثقفة اليابانية تميل إلى الإسلام بسرعة ، وأنجع الشعب الأسود في أميركا إلى اعتناق الإسلام ، وبدأت القبائل المختلفة

في إفريقيا تلتقي رأيَة الإسلام زرارات ووحدانا .. كما اعتنقَ كثيرون من المثقفين في كل بلد تقريرياً الدين الإسلامي . . . وكل هذا دون أن يبذل المسلمون أقل الجهد وأقل المال ..

فرص أضعناها

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي النصف الأول من القرن العشرين كان قادة المسلمين وزعماؤهم ينطحون رؤوسهم بصخور سياسية دون جلوى ، وخلال هذه الفترة ظهرت إلى الوجود أحداث تشير إلى أن الخال الحقيقي هو مجال الدعوة إلى الله ، وليس الأمر تصادماً أو صراعاً سياسياً مع الأمراء والولاة .. ونذكر على سبيل المثال القصة البالغة الدلالة التالية :

« كان الإمبراطور (ميكادو) الياباني قد أرسل في زمن وجود السيد « جمال الدين الأفغاني » بالأسنانة (سنة ١٨٩١ م) كتاباً إلى السلطان عبد الحميد يذكر فيه موعدته ويقول : إن كلامنا ملك شرق ومن مصلحتنا ومصلحة شعوبنا أن نتعارف ونتزاور ، ون تكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التي تنظر إلينا بعين واحدة .. إن أرى شعوب الإفريقي يرسلون إلى بلادنا دعوة لديهم اعتماداً على الجريمة الدينية . عندنا ، ولا أراكم تفعلون ذلك ، فأنا أحب أن ترسلوا إلينا دعوة يدعون إلى دينكم الإسلامي ويمكن أن يكون هولاً صلة معنوية بيننا وبينكم » (١) .

وعندما وصلت هذه الرسالة من ملك اليابان إلى عاصمة تركيا كان السيد « جمال الدين الأفغاني » والعلماء الآخرون موجودين هناك فلاراهم

(١) انظر محمود أبو رية : جمال الدين الأفغاني ص ٣٢ لجنة التعرف بالاسلام القاهرة .

السلطان عبد الحميد الثاني هذه الرسالة ، ولكن أحداً منهم لم يعط الرسالة الاهتمام الجدير بها ، ورجع رسول امبراطور اليابان إلى وطنه حاملاً فقط رسالة من السلطان تحتوى على كلمات الامتنان الرسمية .

إن السبب الرئيسي في عدم انتهاز هذه الفرصة الذهبية إنما هو إغفال المسلمين لأهمية الدعوة ، وانكبابهم على الانشغال بالشئون السياسية ، وقد ظلوا يحسبون أن هذه الشئون هي التي يجب أن تستولي على كل اهتمامهم ، وظلوا يغضون النظر عن أهمية نشر الإسلام وتبلیغ رسالته إلى غير المسلمين مع أن الشعوب كانت تأيدهم ، وتقرع أبوابهم للانتفاع بما لديهم من رسالة الإسلام الخالدة ..

من قضاء الله وقدره

اعتنق الورد « هيدى فارق » عضو الأسرة المالكة البريطانية الإسلام في النصف الثاني من القرن اثناسع عشر الميلادي ، وأعلن في النصف الثاني من القرن العشرين رئيس دولة الجابون (الإفريقية) محمد عمر بانكو اعتنقه للإسلام ، ونشاهد في هذا الزمان أيضاً أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، واللاحظ أن هؤلاء المسلمين الجدد ليسوا من الشعب العادى ، بل هم من طلائع رجال الطب « موريس يوكاي » وانفلسفه « روجيه جارودى » والمهندسة والعلوم وأصحاب المناصب العليا في الحكومات المختلفة .

ومع حالة المسلمين التي بلغت صورة مزرية من الذل والاستعباد في بلاد الهند ، فقد ظهرت فجأة قوة الدعوة إلى الإسلام ، وبدأت الطبقات المختلفة تقبل على الإسلام على نطاق واسع .

وهذا الوضع العجيب لا يمكن تفسيره إلا من خلال هذا الاقتباس

الذى أخذناه من مقال «كرشنادهن بزدا» من «راميشور بغرب البنغال» ، وهو المقال المنشور في صحيفة «ريدينيس الأسبوعية الهندية» والذى يقول فيه «إن الهندوس يعتقدون في التاسخ والنشأة الجديدة وحقاً فلقد أعادت الهندوسية ولادتها الجديدة في (ميناكى فورم) بولاية (تامل نادو) في منتصف شهر فبراير في شكل اعتناق أبنائها الإسلام زرافات ووحدانا» .

إن وقائع دخول الإسلام التي تتكرر في مشارق الأرض وغاربها (بالرغم من الحالة المزرية للمسلمين) تشير إلى أن هذا هو المجال الذى ينتظر الجهد والتضحيات .. وأما المجالات الأخرى التي تبذل بعض الحركات الإسلامية فيها جهودها ، فلا قيمة لها عند الله فكأنما أحبط الله أعمالها ، بينما نرى في المجال الذي لا جهد فيه للقيادات الإسلامية (وهو الدعوة) نتائج عالمية ، وثماراً طيبة ، فكأن الله يبين لنا أن مجالات العمل التي تجتهدون فيها ليس فيها معونة الله وإنما تتجه معونته إلى أرض خصبة إلى حد ينبع فيها نباتها حتى بغير عمل وجهد ..

ولو أن المسلمين بذلوا جهودهم في مجال الدعوة إلى الإسلام فسوف يتضاعف الإنتاج وسوف يتحقق ذلك (الحلم) الذي يحلم به المسلمون وهو غلبة الإسلام وانتشاره .. وازدهار وضعهم الحضاري ، ولكنهم يبحثن عن تفسير (للحل) الذي يحلمون به في مجالات آخرى عقيدة .

الإسلام عمل وحيد

أشاد المفكر والأديب الغربى المشهور «جورج برnard شو» (١٩٥٠) بذكر الإسلام ، حيث قال : «إذا كان هناك دين يستطيع أن يسود بريطانيا في مائة السنة القادمة ، بل يسود أوروبا كلها ، فلن يكون هذا الدين إلا الإسلام ، فإنى لأكن فى نفسى أعظم تقدير الدين محمد نظراً

لما يوجد فيه من قوة مميزة ، فهو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يستوعب الدنيا المتغيرة ، كما يملك القدرة على جذب القلوب على مر العصور » .

وكان المفكر الهندي الهندي « سوامى وويكا » قد كتب ، في سنة ١٩٠٣ يقول : « إن الوحدة الحقيقة هي آخر كلمة في عالم الدين والفكر ، وهذا هو الرأي الذي ينتهي إليه الإنسان بالنسبة لكافة الأديان ، ولكنني أرى أن الدين الذي بلغ القمة في انساواه والحب والتعاون بين البشر إنما هو الإسلام فقط ، ولهذا فإني أعتقد اعتقاداً جازماً أن فلسفة (الفيدا) لا قيمة لها بدون الإسلام العملي ، وأن الهند التي تمثل نقطة اتصال بين الهندوسية والإسلام يجب أن تخرج في المستقبل القريب من الاختلافات والتزاعات حتى تصبح حصنًا منيعاً محكماً » .

والواقع أن الإسلام هو الأمل الوحيد ليس لل المسلمين فحسب بل للعالم كله .. إن الدنيا كلها رغم نهضتها المادية تتضرر وتتعطش للهداية الربانية ، والمسلمون مظلومون في كل مكان ، لأنهم أسلموا أداء مسؤولياتهم وغفلوا عن نشر الهداية الإلهية التي يملكونها بين الآخرين من أبناء جلدتهم .

إن الدنيا معرضة للعقوبة الإلهية بسبب حرمانها من الحق ، والمسلمون معرضون للعقوبة الإلهية واجب نشر الرسالة .. ولوسوف تبقى هذه الحالة طالما بقي المسلمون متتجاهلين مسؤولياتهم ؛ إن الانشغال بشؤون لا تمت بصلة للدعوة ، وتسمية تلك الشؤون « دعوة » ليس إلاّ جريمة تضاف إلى كثير من الجرائم التي سقط فيها المسلمين .. ولوسوف يحرمون بهذا الإهمال من رحمة الله سبحانه .

لقد كتبت سيدة مسيحية من استراليا في كتابها « فهم الإسلام » تقول :

إن الملامح الخجولة للدين الإسلام تدلنا على أن فيه عطاء وافراً لهذا

العالم المضطرب ، والحق أن الإسلام يبدو كنزاً غالى الثمن ، هجره المسلمون وخذلوه ، فإن حياة المسلمين تختلف تماماً عما عرفنا من مجده في هذا الدين وأخلاقياته ، وما لم يعد المسلمين إلىحقيقة الإسلام فسيظلون متخلفين ومتخبطين في مؤخرة ركب الإنسانية ، لأن الإسلام هو الحل الناجع والعلاج الناجع لكل داء ، وإنما هو النبران الوحيد لل المسلمين ، ليس لأنفسهم فحسب ، بل للعالم الإنساني كله .

لقد أوضحتنا فيما سبق – من خلال استعراض التاريخ – تابع ما أنزل الله « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » (المائدة : ٦٧) ، وعندما نزلت هذه الآية ، وتلاها الرسول فإن هذه (العصمة من الناس) لم تكن قد ظهرت إلى حيز الوجود ، لقد كان هذا التاريخ مختلفاً خلف ستار المستقبل . وفي هذه الحال فإن الإيمان بهذه الكلمات وما تقتضيه من وقف المنهج والأموال في سبيل الدعوة كان أمراً في غاية الصعوبة ، لكن دراسة التاريخ – بعد وقوعه – أسهل بكثير من عملية استكشافه واستجلائه قبل وقوعه .

إن المسلمين الذين عاشوا القرن الهجري الأول أدوا أصعب عمل في التاريخ .. إنهم استكثروا الحدث قبل وقوعه ، وعملوا له حسب مقتضياته .

ومع أننا وكل إلينا أيسر عمل تاريخي بعدهم ، إذ أننا نمشي على أرض ممهدة ، وما علينا إلا أن نكرر العمل بالمبداً الذي تحقق في التاريخ ، أي أننا على العكس من أسلافنا الذين ساروا على درب جديدة ، ومع ذلك فإن أسلافنا نجحوا في الامتحان الصعب المجهول وإننا فشلنا في الامتحان السهل المكرور .

لقد وردت في القرآن الكريم آية تقول : « إن الله لا يهدى القوم

الكافرين » (المائدة : ٦٧) ونحن نستطيع استجلاء جانب هام من هذه الآية موجزه أن المسلمين الذين قاموا بنشر الدين وفق طرق علمها الله لهم قد تعهد الله لهم بأن يعمي أبصار الكافرين ، حتى لا يتمكنا من القيام بعوامة مؤثرة على المسلمين ، وحتى لا ينجحوا في مسهم بسوء يقفى عليهم. وهناك جانب آخر نستجليه من هذه الآية يتصل بذات الداعي ، وهو أن المسلمين لو لم يقبلوا هذا المنهج الفكري والعملي رغم تعهد الله لهم بالنصر ؛ وسلكوا طرفاً آخر غير التي فرضها الله عليهم ، فإنهم لن يوفقا في مساعدتهم ، ولن يهدى لهم الله للسير في اتجاه الفلاح . وبالتالي سوف تضيع جهودهم مهما كانت كبيرة وتصبح فاقدة النتيجة .

والحق أن المسلمين فشلوا في مساعدتهم في العصر الحديث مع أنهم لم يدخلوا وسعاً في إنياض أنفسهم من كبوة الإغطاط ، وضحاوا في ذلك بجهنم وأرواحهم ، ولكن ضاعت تصحياتهم ، وصدق عليهم ما ورد في الإنجيل « تبذرون كثيراً وتحصلون قليلاً ، تأكلون ولا تشبون ، تشربون ولا يسكن الغليل ، ويجمع الأجير أجرته في كيس ذى ثقب ، ألمتم كثيراً وحصلتم قليلاً وعندما رجعتم إلى البيت ضيغتم حصولكم ». .

لقد بذل المسلمون الكثير في العصر الحديث ؛ ولكن الله أذهب عملهم أدراج الرياح . وهذا تنبيه لهم من الله — لو عقلوا ووعوا — كي يتوجهوا إلى الدعوة .. ولعلهم — قبل يوم القيمة — يعقلون .

طريق الفطرة

لقد خلق الله لكل شيءٍ قدره ، فلا يتعدي حدوده ، ولا ينقص منه شيءٌ .. إن الشمس والقمر والنجوم تسير على مسارها بانضباط وانتظام بالغين ، دون أن يحدث خلل للحظة واحدة .

والجنيّن يتكون في بطن المرأة وينشأ وينمو رويداً رويداً ، حتى يخرج من بطنه في شكل إنساني كامل في وقت معين .. وهكذا جعل الله لكل شيءٍ قدرأً « وكل شيءٍ عنده مقدار » (الرعد : ٨)

وبهذا الطريق الحكم يمكن أن يجري سير كل شيءٍ إلى مستقره بدون أي تصادم « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (يس : ٤) .

وإن هذا الطريق لا يقتصر على تلك الأشياء التي تظهر فيها النتيجة بحكم الله وقدره مباشرة ، بل إن هذا الطريق ينطبق أيضاً على الأمور والأعمال الإنسانية حيث تظهر الأحداث بجهود من الإنسان .

لقد اعتاد العرب قديماً أنه إذا اشتد غضب أحدهم على زوجه يطلقها ثلاث مرات أو أكثر إلى مائة مرة ، ثم كان يخرجها من البيت مباشرة ، فكانت هذه الأحداث تسرع عن عدد من المشكلات الشخصية والعائلية ، ولكن القرآن قرر طريقاً للطلاق هو أن الإنسان إذا أراد الطلاق فعليه أن يطلق بحساب العدة ، وأن يراقب العدة باهتمام ، وعليه أن يطلق بين طهرين وشهرين متتالين ، ثم في الطهر الثالث للشهر الثالث أن يمسك زوجته بمعرف أو يسرحها بياحسان ، فبهذا يصل حديث غير سار بالتدريج

الفطري إلى منهاه ، والطريق الآخر للطلاق أن المرأة إذا كانت حاملاً وظهر حملها فترجأ عدة الحمل إلى وضع الحمل ، لكي يتزمن الشخص الذي سبب الحمل أن ينفق على زوجته في بيته حتى تكمل مدة وضع الحمل.

وثمة مزايا للعمل المرسوم بالصبر والتأنى والتدريج بدلاً من التسرع والاستعجال ، فربما وجد كل من الطرفين إمكانات جديدة قد تكون غير متوقعة من قبل ذلك ، وإن عملاً عائلياً يسير سيره الطبيعي ليبلغ إلى منهاه دون أن يخلق تعقيدات وملابسات عويصة لحرى بأن يصل إلى غايته بأقل الخسائر ، وبطريقة كريمه ، وإن الله ليصف هذا العمل بأنه بالغ أمره : « ومن يتوكل على الله فهو حسبي إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا » (الطلاق : ٣) .

إذا اعتمد شخص على الطريق المقدر من الله ، وأمن بأنه أحسن طريق واحتمل مرارة الصبر والانتظار ، فإن الطريق يكون ممهداً لاوصول إلى الغاية كما أن الالتزام بمنهج الله الذي وضعه لحياة الإنسان يراعي كافة الجوانب كاملة ، لقد قرر الله نظاماً دقيقاً صحيحاً لعمل كل شيء بعلمه المحيط والشامل لكل شيء .. ولن ينجح شخص في هذه الدنيا التي خلقها الله عند مخالفته لهذا النظام الذي وضعه المحيط بكل شيء .

التدبر الإلهي الخفي

لقد ورد في القرآن عند ذكر الأحداث الواقعة في الكون قوله تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات » (الرعد : ٢) ، فعُلم أن القرآن والكون تعبيران لحقيقة واحدة ، وما فيُصل في الآيات من المبادئ والحكم يجعل أساساً لهذا الكون ، فالكون تصدق عمل القرآن وبتعبير آخر : إن القرآن إظهار لفظي للحقيقة الربانية وإن بقية الكون إظهار عملي لتلك الحقيقة ..

إن الله يريد أن يبني أهل الحق بناهم على أساس متينة في مواجهة الباطل وأن يشيدوا صرح الدين بالتضحيه بالمال والرقت لبناء شخصيتهم القوية ، تكون راسخة وقوية لا يخطئها أعداء الله ولا ينال أحد منها ، إن الله يريد أن يرى دينه غالباً على الأرض . وإن المسؤولية لتقع على عاتق أهل الإيمان لكي يقوموا بدورهم في تحقيق ذلك بجهودهم وجهادهم وبعدهم وعتادهم . وقد ضرب الله مثلاً في القرآن للعنكبوت فقال : « وإن أوهن البيوت بيت العنكبوت » (العنكبوت : ٤١) .. وفي مكان آخر ضرب مثلاً للحديد : « وأنزلنا الحديد فيه بأمن شديد » (الحديد : ٥٢) ، المعروف أن بيت العنكبوت ينهار بهزة خفيفة ، وبلمسة من يد أو خشب ولكن بيت الحديد يتصدى للطوفان ويقف في وجه الأعاصير .

ولقد أراد الله بهذه المثالين أن ينصح المسلمين أن يبنوا بيت الدين على غرار « بيت الحديد » لا مثل بيت العنكبوت .

وإن الجانب المهم للبناء الراسخ المبين هو الجانب الذي يتضمن لنا من تعاليم ديننا ، وهو الاستعانة بالتدابير الخفية الإلهية في تقويض نفوذ العدو وإقامة الحق على أساس سليمة قوية ، ولإيصال هذا المبدأ نقل آيتين من القرآن :

« قد مكر الذين من قبلهم فأي الله بنينهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » (النحل : ١٦) .

والآية الثانية :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظنتم أن يخرجوا وغلبوا أنتم ما نعمتم حصونهم من الله فأتاهم الله

من حيث لم يحسبوا وقدف في قلوبهم الرعب يخربون بيومهم بأيديهم وأيدي
المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأنصار » (الحشر : ٢) .

ويتبين من هذه الآيات أن من حكمة الله وسنته أن تكون جذور
الأعداء هشة ، وبظل هذا شأنها إلى حد القضاء عليها دون أن تشعر ،
فيخر عليهم سقفهم على حين غفلة منهم .

إننا نرى أن القرآن يسوق بعض الأمثلة التي تبين طريق الله وسنته ،
وإن هذه الأمثلة أمثلة رمزية ، ولكن المقصود أن ندرك منها حكمة الله ،
ونعيش حياتنا معتبرين مسؤولين بهذه الآيات التي تتلى في كل زمان ومكان .

ومن هذه الأمثلة القرآنية هذه الأرضة التي هي دودة عدوة للإنسان
وهي دودة صغيرة حجمًا مثل البملة ، وأقل قوة منها وهي لا تتحمل شدة
الحر أو البرد ، ولا تقوى على الحياة في هواءطلق أو في شمس ولذلك
تسر في أنابيب أو نفق من الطين ، ولكن برغم هذا الوهن والضعف
تلحق بالإنسان ضررًا كبيرا ، والسر في ذلك أن الأرضة تعمل بصمت
وأدأب ولا يتبه الإنسان لها إلا حين تكمل عملها ، وإذا كان بباب غرفتك
خشبياً فإن الأرضة تدخل لاذنة في جوانبه ، وتأكل الخشب بصمت ،
وتترك الطلا ، الجميل مثل الورق على سطح الخشب ، وفضلاً عن ذلك
فإن مقدار ما تأكل من خشب تملأه بالطين ، وهكذا تأكل الأرضة
الخشب كله دون أن تقف أنت على ذلك لأنها ترك السطح الظاهري ،
وتأكل من الداخل ولأنها تسد الفراغ بالطين فلا ينهر الخشب ، بل يبقى
قائماً ، وعندما ينتهي الأكل يسقط الباب واهياً على الأرض .

ومن زاوية أخرى نجد مثalaً للكلب ، فالكلب يريد أن بعض الإنسان
ولكن قلماً ينبع في عضه والسبب أنه ينبع من بعيد عندما يرى الإنسان

وبالتالي فإن الإنسان يتبعه ويدافع عن نفسه ، وهكذا تنجع (الأرضة) في خطتها ويفشل الكلب في خطته .. وليس نصيب الكلب إلا النباح أما نصيب الأرضة فأكثر نجاحاً من الكلب لأن الأرضة تعمل بصمت ، واستمرار ، وأما الكلب فكثير النباح والعويل .

إن القرآن يسوق لنا هذين المثالين ليخبرنا عن طريق النجاح ويدلنا على أسباب الفشل .. ونحن نتبين من القرآن أن ميزة الإنسان هي عدم الصبر والاستعجال ، ويعتبر الاستعجال أكبر ضعف في الإنسان ، وطريق الصواب هو - دائماً - طريق الآلة والصبر والجلد وعدم التعجل في الوصول إلى النتيجة .

والاستعجال هو تمني الحصول على النتيجة دون استيفاء الشروط الالزامية للحصول عليها ، فمثلاً شجرة « الحور » يكتمل نموها في مدة مائة سنة، فإذا تمنى الإنسان أن يستقر الشجر ويكتمل في بضع سنين فإن هذا استعجال أمر لا يمكن تحقيقه في هذه الدنيا ، لأن الله لا يغير سنته وفق هوى من يتمنى ويستعجل ويريد تغيير خطة الله الطبيعية في هذا العالم .

إن هذا النظام محكم إلى أبعد حدود ، وليس فيه استثناء لأحد ، ومن يتعد حدود الله وينتهك نظامه فسيعود ذلك بالضرر عليه .

ونسوق في هذا المقام مثلاً من قصبة موسى عليه السلام عندما وصل إلى صحراء سيناء مع قومه : وفرض الله على موسى عليه السلام مدة شهر واحد للعبادة على جبل الطور ووعده أن يمنحه الشريعة بعد قضاء هذه الفترة وبموجب هذا كان على موسى عليه السلام أن يصل إلى الطور في مستهل شهر ذى القعدة ولكن موسى عليه السلام وصل قبل الموعد بعشرة أيام فسأل الله تعالى موسى عليه السلام :

« ما أَعْجَلَكُ عن قومك يا موسى؟ قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب أثري . قال فإنما قد فتننا قومك من بعده وآفسلهم السامری »
(طه : ٨٣ - ٨٥) .

لقد كان موسى عليه السلام مشتناقاً لأن يصل سريعاً إلى الطور ، ففوض مسئولية رعاية بنى إسرائيل إلى أخيه هارون ، ووصل إلى الجبل قبل الموعد بعشرة أيام . ولا شك أن هذا العمل كان دافعه الحصول على رضى الله ولكن ذلك الحق انضرر بتمرده ، وقد كان موسى عليه السلام قائداً ورشداً لقومه . ولم يكن هارون عليه السلام حتى ذلك الوقت هبة على القوم . ولم يستقر أمره عليهم بعد ، فعندما خادر موسى عليه السلام إلى الجبل استطار شرّ المفسدين من القوم ، وسيطروا وقادوا بنى إسرائيل إلى عبادة العجل ، فكان هذا الاستعجال سبباً فيها ظهر من بنى إسرائيل رغم أن دافعه التقرب إلى الله . ومع ذلك فإن الله لم يفعل ما كان يحرض عليه موسى عليه السلام ، ولم يمنعه الألواح قبل الميعاد ، ولم يكن بوسع موسى بالرغم من الإخلاص وحسن النية إلا أن ينتظر المدة المقررة ، مع ما تحمله من ثمن استعجاله ومخالفته لطبائع الأمور .

نهج الإصلاح التدرجى

لقد بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنظامه لتحقيق السعادة والصلاح للإنسان .. وبالنطاق كان لا بد من تحريم الخمر .

ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يمنع الناس عن الخمر مدة تقارب من نصف السنوات التي كانت بعدبعثة ..

لقد ترك النام على حالم . فقد كان صلى الله عليه وسلم في أول الأمر يهذب الطبائع بذكر الله وتوحيده والإذنار بالأخرة :

وبعد هذه المدة نزلت الآية الأولى عن الخمر ، فتحدثت عن كراهةه
الخمر وما فيها من آثار ومتافع ، لكي تستعد الأذهان لقبول التحريم :
يسألونك عن الخمر والماء سر قل ليهما إثم كبير ومنفعة للناس وإنهما أكبر
من فنفعهما » ..

إثر هذا بدأ بعض ذوى العقول يفكرون في تحرى عنها وذهبوا يتساءلون عنـه . ولم يكن قد نزل إلى ذلك الوقت الحكم الـاتـاصـرـيـعـ بالـتـحـرـيمـ .

ثم نزل حكم آخر عن الخمر في العام الرابع للهجرة ولكن لم يكن ذلك من قبيل النهي الواضح ، بل كان يتضمن من البيان أن الخمر ليست بشيء مستحسن ، كما كانت تفرض التقييد على تعاطيها في أوقات الصلاة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (النساء : ٤٣) . وبعد هذا الحكم بعده قصيرة نزالت حرمة الخمر في القرآن « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانتعاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه إنكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصلكم عن ذكر الله وعن الصلاة نهيل أئم مفتون » (المائدة : ٩١) .

لقد أصبحت العقول مهيأةً لهذا الحكم : فما إن نزلت هذه الآية حتى
أعان الناس : « انهينا ربنا انهينا ربنا » وأسألوا أوعية الخمور على الأرض .
روت عائشة رضي الله عنها عن حكمة التدريج التي اتخذت في حرمة الخمر
فقالت : إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الحسنة والنار ،
حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل
أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخسر أبداً .. ولو نزل
لا تزدوا ل قالوا لا ندع الزنا أبداً (ورد في البخاري) .

الإقدام بعد الاستحكام

من أهم الأهداف التي بعثت لأجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب تطهيرُ الحرم من كافة الأوثان والأدنس من الشرك ، وإعادته إلى مركز التوحيد الذي كان أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

فعندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عدد الأصنام ثلاثة وستين صنباً ، وكانت هذه الأصنام موضوعة في الكعبة ، وكان المشركون يطوفون الكعبة عراة ، وقد غيروا أيام الحج ، وابتدعوا (النسى) لهذا الغرض . وفي وسط هذا عاش النبي صلى الله عليه وسلم (١٣ سنة) تقريباً في مكة ، ولكن لم ينهض أبداً لكسر الأصنام ، ولم يتم وأصحابه عظاهرات احتجاجية في طرق مكة ضد هذه الأصنام ، بل ظل يدعو إلى التوحيد والآخرة ، وامتنع عن اتخاذ أية خطوة عملية ضد الأصنام .

ويظهر من الوثائق التاريخية أنه عندما تم فتح مكة في عام (٨٥) وتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلطة في مركز العرب ومعقله (أم القرى) ودخل مكة جالساً على متن الإبل ، بدأ يطوف الكعبة فكان حوله ٣٦٠ صنماً ، وكانت بيده جريدة من شجرة فبدأ يضرب كل صنم بالجريدة حتى سقط كل صنم من الأصنام على وجهه على الأرض ثم طرحت جميع هذه الأصنام ، وعندما كان يفعل ذلك يردد بلسانه هذه الآية « جاء الحق وذهب الباطل إن الباطل كان زهوقاً » (الإسراء ٨١)

إن تطهير الحرم من الأصنام كان مطلوباً من اليوم الأول ، ولكن لم يمكِّن الرسول هذه الأصنام قبل الوصول إلى القوة المترفة ، والحصول على السلطة ، وقد ركز كل انتباهه على إثبات التوحيد والدعوة إلى الآخرة ولم يتم بعمل التطهير الفعلى إلا بعد أن سيطر على مكة على الوجه الأتم ولم يبق هناك من يقاومه في هذا العمل .

الأخذ طريق الحكمة رغم السلطة والقوة

عندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كان العرب يطوفون حول الكعبة عراة ويزرون أنَّ الكعبة أقدس مكان على وجه الأرض ، فيجب على الإنسان الطواف حوله متخلياً عن جميع الحاجز حتى من الثياب .. كان ذلك عيباً كبيراً يكرهه النبي صلى الله عليه وسلم أشد الكره ، وقد أقام (١٣ سنة) في مكة بعد البعثة ولم يحتاج على ذلك .. وفي آخريات أيام إقامته بمكة عندما بلغ عدد أتباعه مائة مسلم كان بإمكانه أن يتخذ من هذه العادة السيئة قضية ويقوم بمعاظرها ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وامتنع عن الأخذ مثل هذه الإجراءات امتناعاً كاملاً ..

ثم مضت الأيام وحرك الله التاريخ نحو الأفضل حتى تم فتح مكة في عام (٤٨ھ) وقد كانت مكة مركزاً قيادياً للأقطار العربية حين ذلك ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتخذ أية خطوة لمنع طواف العراة حول الكعبة . وعندما جاء موسم الحج بعد فتح مكة بأربعة أشهر ، حج المشركون على سنهن عراة ، ولكنه لم يفرض الحظر عليهم في هذا العام أيضاً بل حج المسلمون على طريقتهم ، والمشركون على طريقتهم .

ثم حلّ موسم الحج في العام التالي ، وكان ثانى حج بعد قيام الدولة الإسلامية في العرب (وقلعتها مكة) ، ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم المشركين عن عادتهم السيئة هذه المرة أيضاً ، بل حج المسلمون على طريقتهم ، وكان أميرهم في هذا الحج أبو بكر رضى الله عنه ، وحج المشركون على طريقتهم ، ولكن في السنة التالية قبيل موسم الحج بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضى الله عنه إلى مكة وعلمه أن يُعلن في الحج أنه لا يقصد أحداً من المشركين الحج بعد عامهم هذا ، ولا يطوف أحداً عارياً حول الكعبة (لابحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)

وهكذا لم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم فتح مكة إلى مكة للحج في عام (٩٨) وقال : (إِنَّمَا يَحْسُنُ الْمُشْرِكُونَ فَيُطْوِفُونَ عِرَادَةَ فَلَا أَحْبُّ أَنْ أَحْجُّ حَتَّى لَا يَكُونَ ذَلِكَ) - تفسير ابن كثير - سورة التوبة ، إنه تحمل الحج بطريقة المشركين بعد فتح مكة عامين ولم يحج بنفسه حتى فرض الحظر في العام الثالث من الفتح سنة (١٠٥) ثم سافر إلى مكة ، وأرسى مناسك الحج ، وكان ذلك آخر حج لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يُدعى « بحجة الرداع » .

ضرورة التغيير بطريقة طبيعية

لقد أنشأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام نظاماً للحج بعد بناء الكعبة وكان ذلك النظام مرتبًا على التقويم القمرى ، ولذلك كان يأتي في مواسم مختلفة ، أحياناً في الشتاء وأحياناً في الصيف ، ورأى أهل مكة بعد ذلك أن هذا الاختلاف والتغيير في مواسم الحج يلحق بهم ضرراً تجاريًا ، وجعل أهل العرب من الحج مكسباً ومرتزقاً لهم ، وكان ذلك مصدر رفاهية ونهاء لهم بالطريق ، ولكن اختلاف مواسم الحج كان عقبة في طريق انتعاش معيشتهم .. وسبب ذلك أن النخلة في العرب تصبح يانعة في أيام الصيف وتكون مصدر رخاء لهم تزدهر بها التجارة وتنتعش المعيشة ويزداد نشاط العمل والترحال ، ولذلك يكون الحج في موسم الصيف راجحاً وياعاً على التحسن المعيشي ، وعلى العكس من ذلك ، فإن الحج في الشتاء تبور فيه التجارة ، وقد غلت المصالح الدنيوية على المصالح الدينية لدى أهل مكة فاتجأوا إلى طريق النسي « Intercolition » الذي اقتبسوه من اليهود والنصارى ، فأدخلوا التعديل على النظام الزمامي الديني وحوّلوا الحج إلى التقويم الشمسي .

والمعروف أن التقويم الشمسي يختلف عن التقويم القمري بزيادة أحد عشر يوماً ، فلجعل التقويم القمري معادلاً للتقويم الشمسي أخذ أهل مكة يزيدون أياماً فيه حتى يتعادل التقويمان ، ويترتب على ذلك زيادة ثلاثة أشهر بعد كل ثمان سنوات في التقويم القمري . فكان شهراً أرجى ، (أذني) بعد كل ثلاث سنوات . ويدخل هذا التغير في الأشهر الحرام بما فيها شهر ذي الحجة ، فكانت الأشهر تغير كل ٣٣ سنة وكذلك كانت تغير مواسم الحجج تبعاً لها ، ثم بعد دورة ٣٣ سنة تعود الأشهر إلى مكانتها الأولى ، ولما ظهر الرسول كان من مسئوليته صلى الله عليه وسلم أن يبدل هذا المرسوم الجاهلي ويقرر أيام الحج في ذي الحجة بالتقدير القمري جرياً على سنة إبراهيم عليه السلام ، وعندما تم فتح مكة وقوى مركز الرسول كان بإمكانه أن يغير هذا المرسوم فوراً ويعلن إلغائه ، ولكنه لم يفعل ذلك .

لقد كان الحج في عام (٩ هـ) يصادف ذي القعدة وفق المرسوم الجاهلي ، وكان يصادف حج عام (١٠ هـ) بعد مضي ٣٣ عاماً شهر ذي الحجة ، ولو كان يريد تغيير الرسم فوراً لأعلن بعد فتح مكة بأن الحج في العام المُقبل يكون في ذي الحجة طبقاً لسنة إبراهيم عليه السلام ، وليس في ذي القعدة ، ولكنه لم يتعجل بل انتظر عامين . وهي بعد الحصول على السلطة صبر على حج الناس في ذي القعدة عامين متالين حتى لا يحدث ارتباك . ولكنه في العام الثالث عندما صادف موسم الحج شهر ذي الحجة (بطريق طبيعي) أعلن أن الحج سيقى دوماً في ذي الحجة فقال في خطبته في حجة الوداع في العام العاشر للهجرة : « إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض » .

(١) ينظر تفسير ابن كثير !!

الإصلاح بدون هدم العرف المتبع

من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تُدعى المريسع أو غزوة بنى المصطلق ، وقد وقعت في عام (٥ هـ) فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن حارث بن أبي ضرار رئيس قبيلة بنى المصطلق عباً جيشاً ، وينوى القيام بحملة على المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة بن حبيب الأسلمي للاستخبار فأيَّد الخبر ، فعباً رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً وبادر بالحملة عليهم فام يقدروا على المقاومة وقتل منهم عشرة أشخاص وأسر الرجال والنساء والأطفال وحصل الماسمون من الغيبة على ألفى رأس من الإبل وخمسة آلاف رأس من الغنم ..

وكان الذين أسرموا ينتمون إلى مائتي أسرة ، وكان رسول الله ﷺ ي يريد استئصالهم إلى الإسلام بالإحسان إليهم ، ولكنه لا يريد ذلك بكسر العرف والعادة ، وكان هؤلاء الأسرى ملوكاً لرجال الجيش حسب العرف المتبع والتقليد ، وأوْ أُعلن حريتهم لكان ذلك تحطيمياً للتقليد الشائع والعرف المتبع .. فلهذا دبر تدبِّراً حكماً ناجحاً وهادئاً .

لقد كان من بين أسرى هذه الحرب بنت رئيس القبيلة (الحارث ابن أبي ضرار) وتسمى جويرية وكانت أرملة ، وعند تقسيم الغنائم نالها (ثابت بن قيس الأنصاري) وأراد ثابت بن قيس أن يكتابها إذا دفعت مبلغاً معيناً فيمكن به عتقها ، فجاءت جويرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلبت معونة منه لأداء ثمن المكافحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أذلك على أمر خير من هذا وهو أن أدفع المال وأنزوج لك بعد العتق ؟ فقبلت هذا العرض .

وبهذا تحررت جويرية وزوجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ولما كانت بنت رئيس القبيلة فقد أصبح رسول الله صهرًّا لجميع رجال القبيلة جريأً على العرف القبلي ، ولما علم المهاجرون والأنصار بأمر علاقة المصاهرة شق عليهم أن يبقوا رجال القبائل بعيداً لهم ، فأغتصبوا قلوبهم وأصبحت قلوب رجال بنى المصطلق بسبب هذه المعاملة والمصاهرة لينة عن ذى قبل ، وفي ضوء هذا السلوك الحسن الذى لا يوجد له نظير في النظام القبائلى تأثروا كثيراً ، ودخلوا زرافات فى دين الله .. ولذلك قالت عائشة - رضى الله عنها - عن جويرية : « ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها برقة منها » .

الحركات المعاصرة

لقد قام المسلمون في هذا العصر بحركات عديدة لإحياء الإسلام . ولقد اقيمت كثيرة من هذه الحركات قبولاً وشعبية من جماهير المسلمين غير أن هذه الحركات لم تنجح في تحقيق الأمانى المنشودة ، والسبب في هذا الفشل أن هذه الحركات لم تعتمد منهج الفطرة الطبيعى ، ولم يتبعوا سنة الله التي تقررت لكل عمل ، والتي نجد نماذجها موجودة في الكون ؛ بل اتخذت بعض هذه الحركات طريق الفوضى والصخب وإحداث القلاقل والبلبلة ، ولم تتخذ طريق العمل الصامت الدعوب ، وقد أرادوها قفزة كبيرة ليصلوا إلى الغاية بين عشية وضحاها ، ولم يسروا سيراً طبيعياً متأنياً ، ولم يتبيّنا طریق الدربة والثاني ورباطة الجأش ، بل عمدوا إلى التسرع والتعجل ، فقاموا بأعمال كبيرة قبل أن يدعموا مواقفهم ، وتحركوا بالعواطف الملتهبة بدلاً من الحكمة والتعقل ، ولم يشيروا أساسهم ، بل بدأوا ببناء الصرح الأعلى ، ولم يلتزموا بانتدرج من القليل إلى الكثير ، بل أرادوا إحراز الكثير من أول يوم من عملهم ، وقد ترتب على ذلك كله أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في جميع حركاتهم .

وبداهة فإنه لا يمكن النجاح في هذه الدنيا دون السير على طريق سنة الله . وأى مسار آخر لن يصل بالإنسان إلى الهدف الصحيح ، فإذا كان الله قد جعل سر الفلاح والنجاح في الصبر ، فلا يمكن الفلاح والنجاح بالاستمجال والوثوب السريع ، وإذا قرر الله الفوز في العمل الدائب المستمر الصامت فلا يمكن الفوز اعتماداً على رنة الخطب والكلمات المطمئنة؛ وإذا عين الله فترة خاصة للجهود فلا يمكن الوصول إلى المراد قبل إكمال هذه الفترة . وإذا أقر الله مبدأ التدرج لعمل بالغ الأهمية ، فلا يكون بلوغه بقفزة كبيرة ، وإذا شاء الله أن لا يتخذ المرأة خطوة كبيرة بدون الممكن الذاتي ، فلا يمكن إحراز المدف بالتخاذل خطوات غاجلة طائشة ، وإذا أراد الله حل مسائل هذه الدنيا عن طريق العمل الجدى ، فلا يكون تسويتها بالهاب العواطف ، وإن فيض الله سر الإصلاح في بناء الشخصية وتقويم السلوك ، فلا يمكن إذن البلوغ إلى هدف الإصلاح بإحداث الثورات والانقلابات الاجتماعية .

هذه هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

الإسلام ولعلم الحديث

ذات يوم قابلني شخص حصل على شهادة عالية في العلوم وكان له إمام بالدراسات الدينية والتاريخ أيضاً، ولم يكن يعرف بالدين وبُوجود خالق هذا الكون ، وأثناء الحوار سأله قائلاً : إذا حذف الإسلام من التاريخ الإنساني فهل ينقص شيء؟ .. فقلت : « سينقصه ما كان ينقصه قبل عهده بالإسلام » .

لقد عمر الإنسان هذه الأرض منذآلاف السنين غير أن التاريخ المعلوم يشهد أن الإنسان لم يبلغ ما نعنه بكلمة « العلوم الطبيعية » إلا بعد ظهور الإسلام ، فما هو تحليل هذه الظاهرة؟ .

إن التحليل بسيط جداً ، وهو أن الشرك كان غالباً على الإنسان في كل زمان قبل الإسلام ، وكان أكبر عائق في سبيل استيطان عالم الطبيعة وبهذا الشرك أصبحت المظاهر الطبيعية آلة تبعد ، وما كان للعلوم الطبيعية أن تبرز إلى حيز الوجود وتبلغ المستوى الذي بلغته في العصر الحديث إلا باعتبار هذه المظاهر الطبيعية أولاً مواضيع تدرس وتبحث فتسخر لخدمة الإنسان ، فالإنسان المشرك يعتبر القمر معبداً .. فكيف يجترئ على أن يطأه بقدميه؟ والإنسان المشرك ينظر إلى السبول على أنها قوة تستحق العبادة فكيف له أن يفكر في توليد الكهرباء منها بعد تسخيرها؟ هذا هو الإسلام الذي أخضع الشرك وأعطى فكرة التوجيد مكانة أسمى لأول مرة في التاريخ الذي يعرفه الإنسان.

وقد نشر الإسلام الفكرة القائلة بأن الله واحد لا شريك له ، فكل شيء ما عداه مخلوق وحدث ، وبذلك مهد الإسلام طريق (تقصي

الحقائق) وإدراك عالم الطبيعة ، وكشف الغطاء عن أسراره ، وبالتالي انتصر الإنسان على الطبيعة ، وكانت هذه نقطة انطلاق لجميع التطورات والاختراعات والصور المختلفة للتقدم ، فمما لا شك فيه أن التخلف الحضاري والتردى العلمي كانا من نتاج الشرك ، ولو لا التوحيد لما بلغت الحضارة مابلغته الآن في العلوم والتكنولوجيا ، فالفضل عائد إلى التوحيد بصفة غير مباشرة ، هذا .. ومن البديهي أن الإسلام لا يستهدف أساساً تزويد الناس بالعلوم الطبيعية ، غير أن الإنسان سار على درب العلوم بظهور الإسلام ؛ وقبل ظهور الإسلام لم يكن قد سار قط على هذا الدرس .

وقد اعترف المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد تويني (١٨٨٩ - ١٩٧٥) بهذا وسجله بوضوح في كتابه « موجز دراسة التاريخ » ، فقال :

« .. إن إحدى نتائج الثورة الفكرية التي برزت إلى حيز الوجود على أساس (التوحيد) أن الإنسان بدأ يلقي نظرة على عالم الطبيعة على أساس أنها مخلوق ، وأن له حق أن يعلمه ويسخره ، وانطلقت هذه الفكرة في العهد الأموي؟ (٦٦١-٧٥٠) - أولاً - في دمشق ، ولقد كانت الكيمياء عند حكماء اليونان عملية استخراج الذهب من الفضة وهي عملية لا أساس لها بينما كان « خالد بن يزيد بن معاوية » أول شخص نمى علم الكيمياء كعلم طبيعي وتطور هذا العلم في بغداد أكثر فأكثر في العهد العباسي ، وانتشر في إسبانيا وصقلية ؛ وفاق المسلمين في هذا العهد جميع الشعوب والأمم في التقدم العلمي والحضاري .

ويصف المؤرخون الغربيون هذا العهد بأنه كان من القرون المظلمة ولكن هذا العهد كان مظلماً بالنسبة لأوروبا فقط لا لل المسلمين ... ». هذا ما قاله أرنولد تويني ..

ويقول صاحب مقال « العصور الوسطى » المنشور في دائرة المعارف العالمية : (لا ينطبق مصطلح القرون المظلمة أو العصور الوسطى على الحضارة الإسلامية الرائعة التي كانت منتشرة حينذاك في شمال إفريقيا وأسبانيا ولكن .. كيف كان الشرك يعوق سبيل البحث العلمي ؟

إننا نضرب مثلاً توبيخياً هنا .. لقد قدمت نظريةان في اليونان القديم عن دوران الأرض والشمس ، إحداها كانت نظرية « أرستاركس » والتي تفترض دوران الأرض حول الشمس ، والأخرى كانت « نظرية ثالى » والتي تقول إن الشمس تدور حول الأرض ، وكانت الأرض بناء على النظرية الأولى مُلْوَّنة ، وبناء على النظرية الثانية بيساوية . . ولما اعتنق قسطنطين (٢٧٢ - ٣٧٣ م) المسيحية ، وانتشرت المسيحية بواسطته وحظيت بالقوة الفاتحة ، احتضنت المسيحية « نظرية ثالى » وأولتها بالرعاية والإشراف ، بينما حاول الكهنة إخفاء النظرية الأخرى ، والسبب في ذلك أن المسيحية كانت قد جعلت من المسيح إلهًا ، ولدونها على الكورة الأرضية فبذلك العقيدة أصبحت الأرض مسقط رأس (الآلهة) وأصبحت الأرض بالتألي (مقاسة) وأنى لها أن تكون تابعة للكوكب آخر ؟؟ ..

وقد نتج عن ذلك أن البحوث العلمية أصبحت بالركود والجمود (راجع تفاصيل هذا الصراع بين العلم ودين الشرك في كتاب « درير » ١٨١١ - ١٨٨٣ م « الصراع بين العلم والدين ») .

لقد أنشىء بيت الحكمة في عهد الخليفة المأمون العباسي (٧٨٦ - ٨٣٣ م) وقام بترجمة كلتا النظريتين في عهده ، وقد فحص المسلمون هاتين النظريتين دون أي ضغط عقائدي ، فرأوا أن النظرية الأولى هي أقرب إلى الحقيقة ، وكان الخليفة المأمون العباسي نفسه عاماً كبيراً فشعر

بخطورة هذا الإثبات ، فأمر علماء الفلك والجغرافية أن يبحثوا عن محيط ككرة الأرض ، ففترضين أن الأرض مُندوّرة ، ثم قدرّوا قطر الأرض بكامله بمساحة « درجة أرضية واحدة » في ميدان فسيح ، ولم تكن حينذاك في حيازة المسلمين إلا آلات بسيطة من الأصطරلابات وال الساعة الشمسية لتقدير الزوايا .

ولقد انتخب لذلك ميدان مستطع « بسنجار » وبدأت عملية المساحة الميدانية بإقامة زاوية على ارتفاع القطب الشمالي .. وبالمثل قدمًا إلى الشمال بمسافة ٥٦ ميل زاد الطول درجة واحدة في زاوية ارتفاع القطب الشمالي ومن ثم عالم أن مسافة درجة من سطح الأرض تبلغ ٥٦ ميلا ، فلابد أن يكون قطر الأرض (عشرين ألف ميل) ، وأعيدت هذه التجارب في مختلف الأماكن فلم تسفر إلا عن نتيجة مماثلة ..

والعجب أن هذه المسافة كانت أقرب إلى الصحة بدرجة تحار فيها الآليات ، لأن المساحة الصحيحة في هذا العصر - مع كل التقدم في الآلات - تقول إن قطر الأرض على خط الاستواء يبلغ ٢٠ ألف ميل (راجع : تفاصيل التقادم العلمي للمسلمين في كتاب « تاريخ العرب » صفحة ٣٧٥ لمولفه « فيليب حتى » .

أنفصال العالم عن العالم الإسلامي

كان المسلمون يسايرون موكب العلم ويحملون رايته حتى انفرض نظام الخلافة العربية بسبب خلافات سرت في المجتمع الإسلامي ، فحمل راية الإسلام الأتراك العثمانيون . فانتقل مركز نقل القوة السياسية الإسلامية في القرن السادس عشر الميلادي من العرب إلى تركيا . فكان ذلك حدثاً غير مجرى التاريخ . وحول الأحداث إلى نهج جديد .

ومن المعروف أن التاريخ حافل بالأحداث العجيبة ، فقد يحدث أن يقوم شخص بإسداء خدمة مفيدة من ناحية ، ويقدم مصيبة من ناحية أخرى في الوقت نفسه . ومثال هذا انفوج الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي يرجع إليه الفضل في إضافة خليفة راشدي إلى سلسلة الخلفاء الراشدين وهو (عمر بن عبد العزيز) ، لكن التاريخ يسجل في ترجمة هذا الخليفة أنه شل قوة القائدين الكبارين في الجيش الإسلامي في عهده ، فبذلك توقف السيل الحارف الإسلامي في قارتي آسيا وإفريقيا .

وبالنسبة للأتراء العثمانيين فلا شك أنهم حملوا راية الإسلام التي كانت قد أشرفت على السقوط ، وجعلوا من أنفسهم حصنًا منيعًا للإسلام ضد القوى المسيحية الأوروبية ، ففي هذا الإطار تستحق خدمتهم أن تذكر وتشكر ، ولكن هؤلاء الأتراء هم الذين أصبحوا سبباً في توقف البحوث العلمية في العالم الإسلامي . وفي انتقال المركز العلمي من العرب إلى أوروبا .

لقد كان الأتراء بواسل وشجاعان وأصحاب عزيمة ، ولكن كانت تنقصهم الميزة العلمية ، فلم يدركوا أهمية الدراسات والابحاث العلمية ، بل كانوا يحسبونها خطراً عليهم . فيظنون أن انتشار العلم سيقلل من ولاء الشعب ، فيصعب كبح جماحه ، ولذلك أصبحوا يعادون الأعمال العلمية ، ومع تغير المركز السياسي العربي نزح علماء كثيرون من بغداد إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وبينما كان الخلفاء العباسيون يضعون العلماء موضع الإجلال والتقدير ويغدقون عليهم الأموال – كان الأتراء على العكس ينكرونهم ويستكرون عملهم ويحبونهم وبالاً عليهم . فثبتوا لهم ، وضيقوا الخناق عليهم حتى أظلمت عليهم الدنيا ، ولم يجدوا بريق الأمل في مستقبل كريم . فنزحوا إلى المديار الفرنسي والإيطالية ، ومن ثم انتقلت الأعمال العلمية من علم الإسلام إلى الغرب (راجع تفاصيل هذه المقصة المؤلمة في كتاب محمد كرد على « تاريخ الحضارة العربية ») .

وقد استقبل الغرب هؤلاء العلماء المسلمين برحابة صدر ، فبعد أن فشل الأوروبيون فشلا ذريعاً في الحروب الصليبية بسبب طول باع المسلمين في العلوم ، إذ كانت الجيوش الصليبية في هذه الحروب أول الأمر تستعمل النار اليونانية « Greek Fire » ومنى المسلمين منها بخسائر فادحة في الأرواح والأموال ، وكانت هذه النار اليونانية مثل (القسطارة) التي تملأ بالمواد الكيماوية المتفجرة .. لكن العلماء المسلمين اخترعوا سلاحاً آخر استعمل فيه « الزيت المعدني » فكان أكثر قوة وضراوة من النار اليونانية .

وقد رغب المسيحيون أشد الرغبة في إزالة تخلفهم العلمي ، حتى أصبح ذلك شغفهم الشاغل ، فلما أقبل العلماء المسلمين إليهم استقبلوهم ببالغ الخفاوة وأجذبوا كل الإجلال والإكبار ، كأنهم يرتفبون بهذه الفرصة ، فعززوا أن لا تفوتهم الفرصة هذه المرة .. فأصبحت أوروبا مركزاً كبيراً للاختبارات والدراسات العلمية . وبلغت النشاطات العلمية درجة تعذر نظيرها قبل ، فبجهود مضنية جرت في ظرف ثلاثة قرون ظهرت ثورة في أوروبا نسميتها بالإحياء العلمي الصناعي (راجع قصة إسهام المسلمين في النهضة الأوروبية في كتاب بريفالت « بناء الإنسانية ») .

لقد احتل المسلمون مكانة الأستاذية في العلم حتى القرن السادس عشر ثم آتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا إلا متنطعين على مائدة الغرب ، وسبقوهم أوروبا بقرون في ميدان التعلم والنهضة العلمية ، فأفلتت قيادة العلم وإنما من أيدي المسلمين ولكن حتى بعد هذه السقطة . كان عليهم أن يعودوا إلى حضارتهم العلمية ليستعيدوا مجدهم التليد وينتفعوا بما أنجزت أوروبا من إنجازات علمية نادرة ، عملاً بهذا الحديث العرييف : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق الناس بها » .. وحتى يبنوا قصر العظمة من جديد على أنقاض (العظمة الأولى) .. ولكنهم لم يفعلوا ذلك لسيرين :

أولاً : ابتعد المسلمون عن العلوم الطبيعية لعدة قرون ، ثم عادت هذه العلوم إلى المسلمين بواسطة أوربا في صور استعمارية مروعة ، من استبداد إلى جوع ، إلى استيلاء سياسي على بلادهم ، وقد تقدم بهذه العلوم إليهم أناس انزعوا الحكم والسلطة من أيديهم ، وأساعوا إلى حضارتهم ودينهم فلم يستطع المسلمون أن يعرفوا الفارق بين العلوم الغربية والعلوم السياسية ، فحسبوا أنه لا فرق بينهما ، فناصبوا العلوم الغربية العداء ، كما ناصبووا الأمم الغربية العداء أيضاً ، وبعد أن أقبلت الأمم الأخرى على هذه العلوم أبعد المسلمون عنها ، وفروا منها فكانت النتيجة أن أصبح المسلمون متأخرين بقرن واحد على الأقل عن الأمم الأخرى ، فأن لم يقودوها في العلم ...

ثانياً : وما زاد الطين بلة أن الأشخاص الذين أفاقوا بعد سبات طويل ، ودعوا المسلمين إلى الحصول على العلم لم يكونوا أكفاء ، بل إنهم حاولوا إنجاز هذا العمل الصحيح بطريقة خاطئة ، فلم ينالوا قبولاً يستحقونه في الحقيقة بين أوساط المسلمين . فمثلاً للتأكد على العلم الجديد قالوا إن كلمة العلم أينما ذكرت في القرآن إنما تعني « العلوم الطبيعية » التي يقوم الأساتذة بتدريسها في الكليات والجامعات ، وكان هذا برهاناً خطأً استعمل لمقصد صحيح ، إذ أن الواقع هو أن العلم الذي ذكرت فضيلته في القرآن والحديث إنما هو « علم الدين » لا العلوم الطبيعية . لكن - مع ذلك - يت frem على المسلمين إحراز السبق في هذه العلوم الطبيعية ، ولكن أعنيتها ثبتت من (آية القوة) لا من (آية العلم) ، فلقد ورد في القرآن الأمر بالحصول على هذه القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين وقد احتلت العلوم الطبيعية في العصر الحديث مكان هذه القوة ، فيتحقق على المسلمين إحراز هذه العلوم أيضاً ، ولا يمكن للMuslimين أن يكونوا (م ٧ - قضية البعث)

قوة مرهبة في هذا العصر دون الاضطلاع بهذه العلوم وعلوّ كعبهم فيها ، فإن آية القوة المربة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » إنما تتطوى على أمر تعلم هذه العلوم كوسيلة لتفوية الإسلام وال المسلمين في هذا الزمان .

وبسبب هذه الخطيبة التي اقترنت بها المصلحون من المسلمين في حقل التعليم – أصبحت ظواائف من الأمة تحاربهم !

ولقد ورد في الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) واتفق العلماء على أن معنى مثل هذه النصوص هو علم الكتاب والسنّة ولكن هؤلاء المصلحين طبقوا هذه النصوص على العلوم العصرية فخشى هؤلاء العلّماء على الإسلام ، فرأوا في مثل هذه التصرّفات تحريفاً في الدين فخالفوا العلوم العصرية . . وفي الواقع إن المصلحين في مجال التعليم لم يكونوا على جادة الصواب ، وقد أخطأوا علماء الدين في أنهم لم يفرقوا بين صحة المقصود وصحة الاستدلال ، ولو تفطّنوا إلى ذلك لقاموا بإصلاح الاستدلال ولم يخالفوا المقصود .

موقف الإسلام من العلوم

يعلّق الإسلام بالغ الأهمية على العلوم الطبيعية لأسباب كثيرة نذكر بعضها فيما يلي :

١ - ينظّر مفهوم العلم على دراسة حقائق الكون ببساطة وهذه هي السمة التي وردت في القرآن عن أهل الإيمان . . إنهم « يتفكرون في خلق السموات والأرض » فرجل العلم يقوم بالعمل نفسه الذي يقوم به رجل الإيمان . ولكن مع فرق واحد هو أن العالم يقتصر في بحثه على البحث العلمي ، بينما يهدف المؤمن بهذا العمل إلى العبرة ، وبالتالي يطمئن العالم

إلى الكم الهائل في المعلومات بينما يطمئن المؤمن إلى ما يطمئن إليه قلبه وضميره وعقله المؤمن .

وقد يؤدي هذا الاختلاف العقلي إلى الاختلاف في أسلوب الدراسة وطريقة البحث فيقتصر العالم الطبيعي على خواص الأشياء ويتراوأ ، أهمية الأشياء ويفضل مظاهرها التفعي عن جوهرها ، وهو – أي العالم الطبيعي – يفعل ذلك بما أنه يريد أن يرى الكون بمحض من عقله فقط ، ومعلوم أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يرى رؤية مشاهدة قطعية إلا الأشياء التي تختبر وتلمس ، وبالتالي ففي لغة العقل لا محيسن عن الاكتفاء بالجوانب القابلة للاختبار من الكون .

غير أن المؤمن لا يستضيء بنور العقل فقط ، بل يسترشد بتعاليم النبوة أيضاً ، فيجتاز خواص الأشياء إلى حقائق الأشياء وينتقل بمنظمه من الخلوق إلى الخالق ، فيرى وكأن الكون كله مظهر لصفات الله : بما إن يرى الكون حتى يجد خالقه وصانعه الذي آمن به بواسطة رسوله الموسى عليه السلام .

لقد استدل القرآن بالأحداث الكونية لإثبات رسالته ، وإن ما جاء في القرآن داخلاً في النظر العلمي يصبح للمؤمن بrahamin يقينية ، وبهذا يصبح العلم كله « علم الكلام القرآني » لأن العلم ليس من صناعة بعض العلماء ، بل هي عبارة عن (البحث عن القوانين الموجودة في الكون) فكل ما يعبر عليه العلم إنما هو نفحة من أعمال خالق هذا الكون .. والعالم الطبيعي لا يستهدف العلم إلا للعلم أو لتعزيز الدنيا ولكن العالم المؤمن يستهدف العلم ليجعل منه سلاحاً يتسلح به ضد أعداء الدين الحق ، ولينفذ به إلى القلوب ترغيباً في دعوة الإسلام .

٢ – والأهمية الثالثة للعلوم من المنظور الإسلامي هي الأهمية التي أحنا إلها : وتعنى بها (القوة) التي لابد منها للمسلمين في جهادهم أعدائهم ..

والعلم هو (القوة) في العصر الحديث ، فيلزم الحصول على قوة العلوم للهوض بالإسلام وال المسلمين ، وذلك يتوقف على تقدم المسلمين في تحصيل هذه العلوم المادية التي يجب أن يمهاوا فيها و يكتنوا درجة القيادة فيها .

إن النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين يشهدان بوجود حركات استقلال سياسية في كافة أقطار العالم الإسلامي ، وقد رأى زعماء هذه الحركات أن القوة والسيطرة والرفة ترافق التخلص من براثن الاستعمار ، وكانوا يتصورون أن الاستقلال السياسي هو بنفسه (ازدهار الإسلام) ونهضته ، ولكننا اليوم وبعد ما تحررت البلدان الإسلامية عبر تضحيات كبيرة فلا تزال هذه البلدان ترکع أمام البلدان الأكثر تقدماً في العالم والتكنولوجيا ، وأن استقلالها السياسي لم يرتفع بها إلى مكانة الجد المترقب . . . والسبب هو أن هذه البلدان الإسلامية تحتاج إلى هذه الدول غير الإسلامية في كل شيء من لساعتها إلى الأسلحة والمعدات الخيرية .

ويتجلى لنا من ذلك أن كل شيء في هذا العصر يتعلّق بالعلوم والتكنولوجيا والأمم التي تختلف في هذا النجاح ، لن تستطيع أن تحتلّ مكانة مرمودة في هذا العالم .

الكلمة الأخيرة

عند يمر شخص بشارع (البرمان) في (نيودلهي) فسوف يرى عمارة عجيبة تدعى « بجنتر سنتر » لقد كانت هذه العمارة مرصدأً بناء أمير ولاية (جي فور) في النصف الأول من القرن الثاني عشر إذ كانت له ميل كثيرة لعلم الفلك ، وبالتالي بني المراصد الكثرة في مختلف المدن في البلاد .

لقد كان العلماء في قديم الزمان يقدرون سير القمر والكواكب ، ويقدرون المسافة ما بين الأرض والنجوم ، ويتبنّون بحالة انطقص بهذه المراصد الجوية .. ويقدرون الوقت بالقمر في الليل وبالشمس في النهار ذلك أن نوافذ العمارة وثقوبها كلها كانت تكون تقويّماً للسنة كلها .

إن جميع الأعمال العلمية البناءة في القرون الوسطى كانت نقلأ - في الأصل - عن علماء المسلمين ، فهذا المرصد الذي بناه الأمير جي سنوك لم يكن إلا نقلأ عن مراصد (العهد العباسى) وقد تم بناؤه بنفس التهجي الذي اتّخذ في تعمير مرصد هارون الرشيد قبل ألف سنة .

لقد احتلّ المسلمون مكانة الإمامة في العالم بالأمس القريب ، والدنيا كلها كانت تخنو حذوهم ونقتفي آثارهم ، ثم أفلتت هذه الإمامة من أيديهم على غفلة منهم .

لقد كان من الواجب على أي شخص ينشئ مرصداً قبل ثلاثة قرون أن يتبع التهجي الذي وضعه المسلمون في بغداد ، ولكن الآن عندما يريد أحد أن ينشئ مرصداً فإنه سوف يستورد التصميمات كلّها من الغرب .

هذه هي (الحطة) التي انتهت إليها رحلة حضارة المسلمين ..

وهذه هي النقطة التي يمكن أن تكون نقطة انطلاق مجدهم من جديد .

علم الكلام الجديد

تلخص حقيقة علم الكلام الجديد في أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن الجديد والعقالية الجديدة ، وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد .

فما هو العقل الجديد .. يا ترى ؟ .

إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمي ، أو العقلية العلمية ..

والعقلية العلمية عقلية تهمها الحقائق ، فقد أحدثت العلوم ثورة فكرية في التأريخ الإنساني ، هي تمثل في تقديم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة لا على أساس التخمينات أو القياسات المنطقية ، فإن الثورة التي جدّت في العصر الحديث تقوم على دراسة الحقائق الطبيعية ، وكل شيء مخترع في هذا العصر سواء أكان دراجة أم طيارة ، مصباحاً أم مصنعاً إنما هو عمل ينماشى مع الحقائق الطبيعية .. هذه هي الثورة التي قادت كل الثورات العقلية في هذا الزمان ، وما من جانب من جوانب الحياة إلا وتأثر بهذه الثورة ، حتى تغير أسلوب التحليل في هذا العصر .. لقد كان الإنسان يستنفذ الجهود عبر القرون ، لتحويل الحديد إلى الذهب بعمليات يحيط بها الغموض والسر .. ولكنه تحول الآن الحديد إلى الماكينات بعد الوصول إلى أسرار الطبيعة ، وهذه الماكينات أغلى وأثمن من الذهب . وفي هذا الوضع المتغير ، من الطبيعي أن يولي إنسان اليوم أهميته أكبر وزناً لأمر ثبت على أساس الحقائق الطبيعية .. لقد سار إنسان اليوم في مدارج الرقي على أساس الحقائق ، فإن إنسان اليوم لا يصنع يقينه وطريقه إلا على أمور تثبتها الحقائق .

وأضراب ذلك مثلاً بسيطاً لتعرف الفرق بين ما هو من الفكر القديم أو الجديد ، إنه قبل خمسين سنة كان الأطباء يعجبون بكلمات مثل : « وصفة طيبة سرية توارثها الأسرة كابرًا عن كابر » ، و « دواء ملكي خاص » و « علاج عزيق في القدم » فإذا ما استعملت هذه الكلمات بقصد أي دواء للإنسان ، فبدلوا لها كان « الخواص العجيبة المدهشة » ولكن هذه الكلمات فقدت اليوم كل قيمة ، ولا ينطق (دكتور) اليوم بمصطلح « وصفة قديمة » في إثبات أية أهمية لدواء أو لمعجون للأنسان ، بل سيقول « أعد الدواء بطريقة علمية » يعني أن فائدته قد ثبتت بتجارب ومشاهدات معلومة .. ويمكن لكل أحد أن يصدق نتائج صحة هذه التجارب بالقيام بها والعمل وفقها ، بينما كانت كلمة « العلاج الخاص القديم » تعني أن الخواص الطبية هي ما وراء الإدراك ، وأن العلاقة بين الداء والدواء لم تحدد بالتجربة وأهمية هذا الدواء عرفت بالتوارث فقط ، لكن الإنسان العصري لا يمحجه إلا المسحوق الذي صنع وأعد بطريق علمي يخضع لتتابع الحقائق الطبيعية فكتنال لا يقبل الإنسان العصري فكراً إلا إذا عرف أنه يطابق الحقائق الطبيعية ، لقد كان الفكر الإنساني يقوم قبل الثورة العلمية على القياسات الفلسفية ولكن الثورة العلمية وضعـتـ الفكر الإنساني على أساسـ الحقائق المعلومـةـ . وهـناـ تـبـدـاـ الفـجـوةـ بـيـنـ عـلـمـ الـكـلامـ الـقـدـيمـ وـعـلـمـ الـكـلامـ الـجـدـيدـ ،ـ وـتـضـلـ إـلـىـ حدـ القـطـيعـةـ ،ـ فـقـدـ كـانـ عـلـمـ الـكـلامـ الـقـدـيمـ يـبـنـ عـلـىـ نـمـطـ الـاسـتـدـلـالـ الـفـلـسـفـيـ ،ـ بـيـنـاـ يـبـنـ عـلـمـ الـكـلامـ الـجـدـيدـ عـلـىـ نـمـطـ الـاسـتـدـلـالـ الـطـبـيـعـيـ ،ـ وـكـانـتـ الـحـقـيقـةـ تـبـرـعـنـ سـابـقـاـ لـنـطقـ الـقـيـاسـ ،ـ وـلـكـنـاـ تـبـرـهـنـ فـعـصـرـنـاـ هـذـاـ

وفي ضوء هذا الشرح الوجيز لاعقلية الجديدة أريد أن أقول : إن نمط الاستدلال الجديد — حتى ولو كان جديداً بالنسبة للأديان والأمم الأخرى

فإنه ليس بمحدث بالنسبة للإسلام . . فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الحقيقة فسيتجلّى لنا أن نمط الاستدلال القرآني إنما هو نفس النمط الذي يعبر عن الاستدلال بالحقائق الطبيعية ، فلا تكون مبالغين إذا قلنا : إن علم الكلام الجديد إنما هو علم الكلام القرآني ، وليس علم الكلام الجديد إلا العودة إلى الكلمات القرآنية .

يدرك لنا القرآن أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام قومه المشركين إلى التوحيد قبل أربعة آلاف سنة أقام الدليل على دعوته بمشاهدات الشمس والقمر والنجوم ، وقد ذكرت هذه القصة في سورة الأنعام ، حيث نقرأ هذه الكلمات : « وتلك خجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » فكلمة « خجتنا » تشير إلى أن نمط الكلام الذي اخذه إبراهيم عليه السلام كان نمط الكلام الإلهي ، ويتجلّى من هذا أن الحجة الإلهية أو الاستدلال الإلهي هو أن يستدلّ من الحقائق المعلومة المشهودة لهذا الكون .

ونمضي في هذا السياق فنقول إن التعليم الذي أعطاه الله في كتابه بصورة كلامية جعل الكون بأسره دليلاً عملياً لتأييده وتأكيده ، وأى دليل يكون أقوى من الدليل الذي اخذه الله لنفسه ، ولذلك جاء في القرآن في جانب « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » (الجاثية : ٢٩) ، وجاء عن الكون (السماء والأرض) في جانب آخر « وما خلقناهما إلا بالحق » (الدخان : ٣٩) .

ومن هذا يتبّع لنا أن القرآن والكون كليهما إظهار للمشيئة الربانية وهو إظهار بصورة (كلامية) في مكان ، وإظهار بصورة (عملية) في مكان آخر .

ونحن نعلم من القرآن أن هذا هو الطريق الذي اختاره الله لجميع رسليه

فهذا نوح عليه السلام الذى عاش فى سالف العصر وقدم زمان ومع ذلك
فأسلوب استدلاله هو نفس الاستدلال المبني على البراهين الحقيقة أو الطبيعية
ففى سورة نوح ، يقول نوح عليه السلام : « .. فقلت استغفروا ربكم إنه كان
غفاراً . يرسل السماء عليكم مدارواً مالكم لا ترجون الله وقاروا وقد خلقكم أطواراً .
ألم قروا كيف خلق الله سبع سموات طبقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل
الشمس سراجاً والله أذن لكم من الأرض نباتاً ثم يعیدكم فيها ويخرجكم إخراجاً .
والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » (نوح)

وانظر بعد هذا في أسلوب الدعوة القرآني الذي نسميه الأسلوب المعتمد
على الحقائق الطبيعية ، يقول القرآن : « أفلأ ينظرون إلى الإبل كيف
خلقت وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض
كيف سطحت » (الغاشية) .

إن هذا هو الاستدلال الإسلامي الأصيل الذي تبناه سائر الرسل
والأنباء والذى نجده بكثرة في القرآن .

ولكن لما بدأ تدوين العلوم الإسلامية في القرن الثاني المجري أيام
الخلافة العباسية ، تم ترتيب علم الكلام الإسلامي على نسق من المنطق
والمفاسدة القديمتين ، ثم أدخل عام الكلام الإسلامي منهجه هذا في المناهج
الدراسية زمان الإمام الغزالى ، وجرت الأمور التعليمية على هذا النحو
قروناً طويلة دون انقطاع ، حتى غدا علم الكلام مرادفاً لعلم المنطق .
ولقد كان ذلك انحرافاً عن منهج القرآن ، حين وضع علم الكلام أبنية
الاستدلال الإسلامي على أساس المنطق القياسي ، بينما وضع القرآن أبنية
الاستدلال الإسلامي على أساس الشواهد الطبيعية ، ولقد سيطرت الكلاميات
اللطافية على عقول الناس حتى أصبحت شغلهم الشاغل مدة ألف سنة .

غير أن الأوضاع الخارجية في هذا العصر الحديث ترغمنا على أن نتركها ونتخلى عنها ونرجع إلى أسلوب القرآن الطبيعي القوم ، وإن كان علم الكلام قد يتمتع بقدر قليل من الوزن العامي قبل الثورة العلمية فإنه قد فقد هذا الوزن اليوم ، وإن أفادت الدعوة منه ، تلك التي لم تكن توجد فيه حتى في مرحلته الأولى قد ابتعدت عنه أقصى الابتعاد في عصرنا الحديث .

وإن علم الكلام الجديد ليس إلا علم الكلام القرآني ، وفي الإمكان التعرف على علم الكلام القرآني جملة وتفصيلا ، بتتبع آيات الكتاب ، وسوف نذكر فيما يلي بعض الجوانب المستفادة من (الكلاميات القرآنية) وهي تلك الجوانب التي يعتمد عليها في فهم علم الكلام القرآني :

أولا : لإدراك أول مبادئ الكلاميات القرآنية يجب علينا أن نتأمل هذه الآية : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربِّي وما أوتيت من العلم إلا قليلا »

ثمة سائل سأله ، وينتظر الجواب ، لكنه لم يرد عليه - وفوق ذلك نرى تثبيط همه حتى لا يشير مثل هذه الأسئلة . وقد علمنا أنه ثمة أسئلة توجد أجوبتها الحقيقة خارج حدود إدراك الإنسان ، فلا يستطيع الإنسان أن يفهمها كما لا يستطيع الجنين أن يفهم الدنيا خارج رحم أمه ، وإذا رأيت شخصاً يتورط في حماة مثل هذه الأسئلة فأحسن إليه وانصره بكلمة عن إثارة هذه الأسئلة ، وعلى العكس من ذلك إذا أراد شخص أن يرد على السؤال متعمداً في الظلمات فإنه سيصر نفسه ويصل غيره .

ذات يوم قابلني شخص وقال : إن سؤالاً يحرني منذ مدة طويلة وإن أطلب إلينك الإجابة عنه ، ثم قال : إن الحديث التبوى صريح في أن الإنسان ينال جزاء عمله ثواباً أو عقاباً فور وفاته ، فرجل يتوفى بعد

قضاء ٦٠ سنة من حياته (اليوم) .. ورجل توفى قبل عشرة آلاف سنة بعد أن بلغ من عمره ٦٠ سنة ، فإذا كان نصيب كل واحد منها نار الجحيم فمعنى ذلك أن شخصاً نال عقاباً على اقراراف ذنب واحد مدة عشرة آلاف سنة أكثر مما لفى الرجل الذي عمل نفس الذنب ، ومات حديثاً .. وإذا كان نصيب كل واحد منها الجنة فإن واحداً منها سيتمتع بنعيم الجنة عشرة آلاف سنة ، أكثر من نصيب الرجل الآخر ، فللإجابة عن هذه المسألة - والكلام لا زال للسائل - كان على الله أن يخلق جميع الناس في آن واحد ، ثم يتوفاهم في آن واحد لينالوا العقاب أو الثواب سواء.

وللتعليق على مثل هذه الأسئلة نقول : إن جميع مثل هذه الأسئلة ناجمة عن سوء الفكر وفساد العقل ، فإننا نحيا حياتنا في عالم محدود ، ولا نتجاوز حدود الزمان والمكان في تفكيرنا ، فليس بإمكاننا الإحاطة بجميع الحقائق عن الآخرة التي تتعالى عن حدود الزمان والمكان ، ونحن لا نستطيع الحصول على العلم الكافي عن الآخرة ، اللهم إلا إجمالاً ، ولابد لنا أن نقتصر على هذا العلم الإجمالي ، وأما المحرص على الزيادة في هذا العلم فهو طريق محفوف بالمخاطر .

لقد جاء في القرآن أن الآيات تنقسم إلى قسمين - حكمات ومتشبهات أما الحكمات فتتصل بدنيانا المعلومة ونستطيع فهم مدلولاتها مثل «والسارق فاقطعوا أيديهما» (المائدة : ٣٨) .. أما المتشبهات فهي تختص بأمور الغيب ، فقد بين الله هذه الأمور بأسلوب رمزي مثل :

«ثم استوى على العرش» (الأعراف : ٥٤) وإن السعي لفهم مدلولات أو مفاهيم الآيات «الحكمات» أمر مفيد ، ولكن السعي لتعيين مدلولات «المتشبهات» سيعود بالضرر والخسران على المسلمين .

إن هذا التقسيم للعلم (المحكمات والمشابهات) يتلاءم مع الطبيعة البشرية ويتجلّى لنا من المعطيات العلمية الحديثة ، إن هذا التقسيم صحيح ، وإن علم الإنسان محدود . ولقد أصبح ما لا شك فيه أن أحداً من العلماء في عصر العلم الحديث لا يجادل في أن الإنسان لا يتأتى له إلا إثراز علم محدود جزئي وأن العلم (الكلي) فوق قدرته ، ويتجلّى من هذا أن أول مبادئ (الكلاميات القرآنية) يقوم على أساس علمي ... إنه الأساس الذي اعترفت به العقلية الجديدة ببعثرها وتنتقياتها ..

ثانياً : إن المبدأ الثاني لعلم الكلام القرآني هو الاستدلال على الحقائق بالطرق الطبيعية ، وكما ورد في القرآن : « ستر لهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبنّوا لهم أنه الحق » (فصلت : ٥٣) ونذكر بعض الأمثلة في هذا الخصوص :

(أ) لقد قام القرآن بالدعوة إلى الإيمان بالله الذي خلق هذا الكون .. ولكن ما هي الأدلة على هذه الدعوة ؟ .. لقد أقام المتكلمون القدامي أدلة قياسية تحت ضغط عقليتهم الفلسفية ، ولكن القرآن يقيم الأدلة المشاهدة ، فيقول : إن هذا الكون الواسع الذي ترونه رأى العين ولا تنكرونه إنما هو في حد ذاته دليل على خالق الكون :

« ألم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما .
وجعلنا من الماء كل شيء حتى أفالا يومئون » (الأنباء : ٣) ..

ففي هذه الآية نرى بوضوح إشارة إلى حادث كوني يسمى بنظرية Big Bang (في العصر الحديث) ، فيما أن الله مطلع على الإنسان منذ ميلاده إلى وفاته وعلمه به .. وهو لهذا يخاطب الناس المنكريين بأسلوب غير زمانى ، فيقول لهم : إن أدلة وحدانية الله موجودة وكائنة في نفس الكون الذي تشاهدونه بعيونكم فكيف تكفرون به ؟؟ ..

في عام ١٩١٣ كشف العالم الفلكي الأمريكي « فستو ملشن سلفر » Vesto Melvin Slipher في مرصد « لوفيل » خلال بحثه - كشف أن ثمة مجرات تندفع إلى اتجاه الخارج بسرعة فائقة ، ثم كشف العلامة (أدون هبل) Edwin Hubble و ملتون هوماسون Milton Hamason - بعد مشاهدة من مظار يصل لمائة بوصة - أن سائر المجرات تسير بسرعة إلى اتجاه الخارج . . وقد جمع عالم الفلك الهولندي (وليم دي ستار) شواهد في تأكيد هذه النظرية . وفي عام ١٩٦٥ كشف أرنو بنزياس Arno Penzias و روبرت ويلسون Robert Wilson عن بعض الأشعة الناتجة عن الانفجار الكوني البدائي ..

وبعد هذه البحوث العلمية المتالية راحت هذه النظرية تعتبر حقيقة ثابتة ! إن هذه النظرية تفيدنا أن العالم ليس أزلياً ، بل إنه بدأ في وقت خاص محدد لا نعرفه ، وتدل هذه النظرية على أننا نعيش في عالم يزيد حجمًا باستمرار ، وأن المجرات تندفع إلى اتجاه الخارج بسرعة مدهشة .

ويقول علماء الحساب إن هذه السرعة الخارجية أو وجهت إلى الداخل فسيصبح هذا الكون (كرة هزيلة) بعد عشرين ألف مليون سنة . وهذه النظرية دليل على وجود الله بالقوانين الطبيعية ، لأن الكرة المادية الجامدة لا يمكن أن تتحرك إلى اتجاه الخارج بصفة منتظمة بدون حرك خارجي .

ونشر العالم الأمريكي روبرت جاسترو Robert Jastrow مقالاً في مجلة Reader's Digest في أكتوبر سنة ١٩٨٠ ، جعل عنوانه هل اكتشف علماء الفلك وجود الله؟ « Have Astronomers Found god? »

ولما كان ثمة علماء قد اعتقادوا بإمكان التغليل العقلى لكل حادث ليظهر كناتيجة حادث طبيعى آخر وقع في الماضي .. فقد اضطرب هؤلاء العلماء عند ظهور هذا التحقيق ، وشعروا بالملع والفزع ، إذ أن الاعتراف بصححة هذا التحقيق يكون رديفاً لوجود (إرادة الله في الكون) بدلاً من سلسلة العلة والمعلول والفعل ورد الفعل ، ولما لم يسعهم إنكار هذه الحقائق والتقليل من أهمية هذا الحدث العظيم ، أطلقوا عليه اسم Big Bang أي (الانفجار العظيم) ، ويعنى ذلك أن العالم أو الكون ، ظهر إلى الوجود (بانفجار صرف) .

وقد سأله عالم أمريكي ملحد من هؤلاء العلماء الذين أزعجتهم هذا الكشف العلمي ، فقال لرجل دين : وماذا كان الله يصنع قبل خلقه الأرض والسموات ؟ ...

فأجابه الرجل : إنه كان يعد جحينا لأولئك الأشخاص الذين يثرون مثل هذه الأسئلة .

He was Setting hell for People who ask Questions Like that.

(ب) القرآن يخبرنا أن هذا العالم ليس بعالم نهائى ، بل يعقبه عالم آخر ولو أنه في الغيب لكنه حقيقة واقعة ، وتأكيداً لهذا القول أقام المتكلمون القدامى أيضاً أدلة منطقية قياسية ، ولكن القرآن يقدم الأدلة على قوله بالعلم التجربى ، فهو يقول : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الزاريات : ٤٩) ، فإذا كان لكل شيء زوجه الذى يستكمل به نفسه فلابد أن يكون لهذه الدنيا زوج - وزوج هذه الدنيا هي الآخرة .

لقد كان الإنسان يعلم من قديم الزمان بأن للإنسان والحيوان زوجاً ، ولكنه لم يكن يعلم حتى عام ١٩٣٨ أن المادة الجامدة زوجاً أيضاً ،

وفي نفس العام اكتشف عالم من علماء الطبيعيات الرياضية وهو بول ديراك Paul A. M. Dirac « إمكان وجود ذرة غير مرئية مع ذرة مادية مرئية » واكتشف في عام ١٩٣٣ العالم أندرسون K. Anderson « خلال دراسته للأشعة الكونية بوجود ذرة مع الألكترون تتمتع بقوة برقية مضادة وقد سميت هذه الذرة « بالألكترون المضاد » وقد مضى هذا التحقيق حتى علم أن سائر النرات الكائنة في الخليقة توجد بشكل أزواج ، Pain Particels « فهناك جسيمة مضادة للجسيمة ، وذرة مضادة للذرة ، وميتر مضاد للميتر ، وعالم مضاد للعالم ، كما أعلمنا ديراك » في عام ١٩٣٣ م .

ويرى بعض العلماء في العصر الحديث أن للعالم المضاد جوداً متوازياً لعالمنا ومنفصل عننا ، وقد جعلت هذه الدنيا بصورة الماستر ، وبموجب قوانين الطبيعة لابد أن يكون هناك عالم آخر مصنوع من الماستر المضاد . ويقاس عليه بأنه قبل عشرين ألف مليون سنة قبل حادث « Big Bang » المشار إليه سلفاً ، اجتمع (ماستر الغوثان) و (الماستر المضاد) في صورتين مختلفتين ، وقاما بتكوين العالم والعالم المضاد .

لقد قام بدراسة هذه النظرية أولاً عالم سويدي للطبيعة يدعى أوسكل كلين Osker klien « وعالم الفلكيات الطبيعية هانيس الفوين Hannes Alfuen » وقدما نتائج دراستهما في سنة ١٩٦٣ ، ثم أضاف الدكتور غوستاف نان Gustav nan « بعدهما نتائج بحثه في أنه لا يمكن الإخبار تفصيلاً عن العالم المضاد بالقوانين المعاومة للطبيعة ، ولكنه متتأكد بوجود العالم المضاد الذي هو منفصل عننا ، وله وجود متوازن لدنيانا .. وإن جميع الجسيمات المضادة توجد في حالة غير مستقرة في هذه الدنيا ولكنها ستكون في حالة مستقرة وفامة مع الدنيا

المضادة ، لأن جزئيات كافة النثرات ستكون لها قوة برقة سلبية ، وستكون لطاقة الألكترون قوة برقة إيجابية .

(ج) ولنأخذ مثلا آخر جاء في القرآن عن (فرعون) .. إنه يقول : « فالبوم ننجيك بيدينك لتكون من خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لفافلون » (يونس : ٩٣) .

وفاء بهذا الوعد حافظ الله على جثة فرعون لأجيال متلاحقة تتحققها للعبرة ، وقد استخرج علماء الآثار الأوربيون جثة فرعون بمدينة مصر القديمة طيبة « Thebes » بعد أعمال الحفر ، ويرى العلماء أن موسى عليه السلام عاش عهد فرعونين ، ولد موسى عليه السلام في أيام رمسيس الثاني وغرق ابنه منفتح « Mernistah » عندما أراد أن يلحق موسى عليه السلام حين خرج موسى مع بنى إسرائيل من مصر ، وقد عاش فرعون وموسى في القرن الثالث عشر قبل ولادة المسيح ، وتوجد جثتا فرعوين في المتحف المصري بالقاهرة للزيارة العامة ؛ وقد أثبتت البحث العلمي أن « منفتح » هو نفس الفرعون الذي غرق في الماء .. فقد جاء في الإنجيل أن فرعون مات غرقاً في البحر ولا يشير الإنجيل إلى استبقاء جثته أدنى إشارة ، والتاريخ صامت في ذلك ، ولم يكن الإنسان يعرف شيئاً عند نزول القرآن : وإلى ألف سنة بعد نزول القرآن عن جثة فرعون . أليس ذلك مما يثير الإعجاب ويدل على كون القرآن كتاب الله؟ ..

إن جثة فرعون قد تم العثور عليها ، وهي سليمة ولم يأكلها الدهر ، ويقول الدكتور (موريس بوكي) في كتابه « الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث » : إن الذين يطلبون بالأدلة الحديثة التعرف على مدى صدق الكتب المقدسة ، عليهم تدبر هذه الآيات من القرآن ، ثم عليهم أن يشاهدو

الموميات المحنطة في المتحف المصري بالقاهرة ، فسوف يرون (الشهادة المحققة لصدق القرآن) .

وأنا هنا أحيل الذين يريدون دراسة هذا الموضوع تفصيلاً إلى بقية ما أورده الطبيب العالمي (بو كاي) في كتابه السالف الذكر ، فالحق أن هذا الكتاب صاف في هذا الموضوع ، فلقد كان المؤلف يعقد المقارنات بين القرآن والحقائق العلمية الحديثة ، وقد أمضى سنوات متتالية في دراسة الموضوع ، وتعلم لغة القرآن إلى حد كبير ، ليدرك مفاهيم القرآن بلغته . ثم ألف هذا الكتاب الذي يحتوى على (٢٥٠) صفحة مقدماً المقارنات بين آيات القرآن والعلوم – كما ذكرنا – منتهياً إلى قوله الخطير :

إن هذه المطابقة الدقيقة بين كتاب قديم ومعلومات حديثة لا يمكن أن تكون دون صدور هذا الكتاب عن عقل فوق مستوى البشر ... ونظرًا إلى أن العلم الذي كان موجوداً في زمان محمد والمستوى الذي كان عليه هذا العلم في عهده فإنه لا يمكن لأحد أن يستنتج أن تلك الآيات الإلهية التي تشير إلى الحقائق العلمية قد ظهرت من فكرة بشرية ، لكن من المعقول تماماً أن يعتبر القرآن ظهوراً للإلهام الرباني ، بل وتضاف إليه ميزة يتفرد بها ، وهو أن القرآن يؤكد صحته ببيانات علمية ليست في غيره ، حتى من الكتب السماوية (المحرفة) الأخرى ، وإنه لتتضاح لنا من دراسة هذه البيانات وصحة مدلولاتها أن الآيات القرآنية إنما هي تحد معجز لمن يقول : إن القرآن كتاب ألم به شر .

ثالثاً : والمبدأ الثالث من الكلاميات القرآنية ، هو إبراز القرآن بجانب من هذا الكون الذي قرره الله لنا ميزاناً نحكم إليه . فالقرآن يدعوك إلى أن يعبد الإنسان ربه ، ويسلم نفسه لخالقه ذليلًا وخاشعاً .. ولم يقدم القرآن في تأييد هذه المطالبة أدلة فلسفية بل استخدم أدلة طبيعية .. ولفهم هذه (م ٨ - قضية البعث)

المسألة علينا أن نتأمل في هذه الآية : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
عَنْهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
وَمَنْفَعَ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ »
(الْحَدِيد : ٣٥)

والميزان آلة تزن وتعادل شيئاً بشيء . وفي ضوء هذا المفهوم يبدو
لنا أن الكون كله ميزان الله ، لقد خلق الله كل شيء في هذه الخليقة
على نفس ميزان العدل الذي وضعه الله للإنسان .. إن كل مخلوق مفظور
على هذا العدل ، وهو يعمل على العدل جبراً ، وعلى الإنسان أن يستقيم
على العدل بإرادته الحرة ، وتفيدنا الآية أن الله أخبر عن كافة الطرق
العادلة التي يحبها ويرضاها ، ومعنى « الميزان » أن الله أقام هذا العالم
على نفس هذه الطرق العادلة ، وعلى الإنسان أن يسترشد بمبادئ العدل
من القرآن بتلاوته ، ثم لينظر إلى عمله ، وما إذا كان موازياً لنمط العدل
الذي أحبه الله لكونه . وقد ورد كمثال لذلك (الْحَدِيد) لأنه يمثل المزايا
الممتازة للإنسان المؤمن ، فجميع أنواع النفع مناطة في هذه الدنيا بسلوك
الإنسان الموثوق به ، وهذا هو النفع القوي الموثوق به للحديد في عالم المادة
وإن الله ليطالعنا بنفس السلوك القوي الممتاز .

وهناك مثال آخر للنحل ورد في القرآن :

« أَوْحِيَ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنَّ اخْذِي مِنَ الْجِبَالِ بِيَوْتًا وَمِنَ الشَّجَرِ
وَمَا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلُّ مِنْ كُلِّ الْمُثَرَّاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلِلاً . يَخْرُجُ مِنْ
بَطْوَنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »
(سورة النحل : ٦٩) .

ومعروف أن نظام النحل نظام اجتماعي شامل وكمال ، وفيه يمكن مشاهدة سائر الأجزاء ، التي تكون النظام الإنساني للجتماع والمدينة . ولكن نظام النحل يخلو من سائر المساوىء التي توجد في النظام الإنساني الاجتماعي ، فالنحل يتغذى مثلك لإنشاء مجتمع سكنى ، وبعد مصنعاً دقيق الصنع وبالغ التطور ، ويتأتى بالأجهزة اللازمة إلى المصنع من مسافة تبعد أحياناً مئات الأميال ، وعشرات الآلاف من النحل تعمل ما فرض عليها من الأعمال . وإن الإنتاج الثمين الذي يأتي من هذا المصنع هو « العسل » الذي يحتوى على نوع ثمين من الغذاء الذى فيه شفاء من الأمراض .

ويعيش النحل بهذا النظام الرائع ، ولكنه لا يدمر مساكن الآخرين ببساط نفوذه وسلطانه عليهم ، ولا يطأ الزهور والرياحين ليشرب من رحيقها ولا تحدث حوادث المناوشات والاشتباكات في حياته الاجتماعية مع بني جنسه ولا يضيع قطرة من إنتاجه ، ولا يصرفها كلها على ذاته ، بل يتبرع بمقدار كبير منها لإشباع حواجز الآخرين ، ويسير كل أمر في جراء الطبيعى في عالم النحل .

وهكذا يقدم النحل بطريقة فعلية – بأمر من الله – التموج الذي ينبغي أن يختاره الإنسان لنظامه حتى يسير سيرته الجديرة به .

إن الأحكام الإلهية لتمثل إنا في الكون من خلال نماذج متعددة منها عبادة الله في ظل الاتصال بقوانين الطبيعة ، ومثل السلوك الممتاز القوى المتمثل في الحديد ، ومثل سفر الحياة دون الاصطدام مع الكواكب الأخرى في مداراتها .. ومثل التضامن والتعاضد كما في أعمال النحل ، ومثل الإفاضة على الناس دون أى تمييز ، كما تفعل أشعة الشمس ... وهلم جرا .

إن هذا الأسلوب للدعوة إلى التوحيد والطاعة الإلهية إنما هو أسلوب طبيعي ، وهو يقوم على الاستدلال الكوني الذي هو إرهاص لازدهار علم الإنسان و عمله .. وإذا ما أخذنا هذا الأسلوب واستعملناه بطريق مؤثر فسنجد قلوباً واعية وآذاناً صاغية للإنسان في المجتمع البشري .

إننا نرى الإنسان يجعل تقويمه السنوي والشهري وفقاً لظهور الملال و تدرجاته إلى الكمال و نحن نرى أن الإنسان يجعل تقويمه منتظماً بدوران الأرض حول الشمس ، و نلحظ أن الإنسان يصنع الأشياء على نماذج الطبيعة (السفينة على نموذج السمك ، والطياراة على نموذج الطير ، والكاميرا على نموذج العين وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى) . ومع ذلك فهو - للأسف - لا يجعل الأخلاقيات الكونية نموذجاً لأنها مسلوكة ، وهذه مفارقة غريبة ، فالإنسان يتخذ الكون مقياساً له في الحالات المادية ، لكنه يرفض أن يتخذ الكون مقياساً أخلاقياً له ..

رابعاً : والمبدأ الرابع من مبادئ علم الكلام الجديد ، هو اتخاذ الأسلوب السلس البسيط للكلام ، وهذا الأسلوب البسيط هو الأسلوب الذي فيه سداجة حسب الحقيقة و سير الطبيعة وهو يخلو من الزخرفة .

لقد خلق الإنسان على فطرة بسيطة ، وإذا كان الكلام بسيطاً خلوأ من التعقيد فسيكون كالثىء الدائرى الذى وضع فى مكان دائرى .. وعلى العكس من ذلك إذا كان الكلام صناعياً فسيكون كالثىء المكعب الذى وضع فى مكان دائرى .. ومن ثم فتحن نرى أن الكلام البسيط البسيط يسرى على طبيعة الإنسان وينفذ فى أعماقه ويسطير على وجوده ، بخلاف الكلام الصناعى المعقد الذى لا تنشربه طبيعة الإنسان ولا يستطيع أن يفهمه هضمأ صحيحاً أو لا يسفيه كلياً .

لقد كان الأسلوب الأدبي رائجًا في قديم الزمان فيسائر أنحاء العالم ، فمن شاعر يقدم أحاسيسه نظماً ، ومن كاتب يظهر أفكاره ثراً مسجوعاً ، ومن فنان يفصح عن مرئياته في تمثيله ، ومن قصصي يعرب عن مشاعره في صور قصصية .

ولكن الأسلوب الأقوى في عصرنا هو ذلك الأسلوب الذي يقدم الكلام بصورة واقعية وحقيقة ، ويفهم أن هذا الأسلوب الجديد هو نتاج القوة العلمية وهو يدعى (بالأسلوب العلمي) ولكن الحقيقة هي أن هذا الأسلوب ظهر لأول مرة في القرآن .

فالقرآن أول كتاب قام على الموضوعية والحقيقة في التاريخ ، وهو الذي أسس الأسلوب الطبيعي ، وهجر الأسلوب الصناعي .. فإن الأسلوب العلمي إنما هو أسلوب قرآني بحت ، ولكن بعد أن انتشرت العلوم العقلية (المنطق والفلسفة) بين المسلمين بعد نزول القرآن بمائة سنة ، سيطر الأسلوب الصناعي القديم على جميع العلوم الإسلامية مرة أخرى ، وكان القرآن قد قضى على ذلك الأسلوب ، فبدأ الناس يحسبون أنه امثالك لناصية البيان أن تصاغ تعاليم الدين السمحنة السهلة في قالب مصطلحات (المنطق) . وكانوا يحسبون أن من براعة الإنسان وقدرته على الكلام أن يقدمه في النثر المنظوم ، أو الشعر المشور ، وقد آن الوقت لأن نعود إلى أسلوب القرآن ونعرض الإسلام على الناس في أسلوب علمي ، لأن الأسلوب العلمي في التحليل الأخير هو أسلوب القرآن !! ..

وإذا أخذنا بالأسلوب العلمي ، فسيعني ذلك مجرد العودة إلى أسلوب القرآن .

البعث الإسلامي الجديد

إن الله يريد أن يعلو دينه ويتبؤا مكانة الفكر المهيمنة على امتداد العالم . ولأجل تحقيق هذا المقصود يجب أن تكون الظروف في العالم مواتية ، وقد جعل الله الظروف مواتية لخاتم النبئين صلى الله عليه وسلم بعد تتابع عشرات القرون قبل البعثة ، وقد عرف رسول الله كيف يستخدم هذه الأحوال والظروف حتى يكون الدين فكرة مهيمنة ومسطرة في العالم .

ولقد جعل الله الظروف مواتية مرة أخرى نتيجة عمل دام ألف سنة ليكون الإسلام فكرة غالبة من جديد وليس بعده الغابر .

ولكن تحقيق الآمال والأفكار في الواقع يحتاج إلى جهود جدية ملائمة ولدى الوعي العميق بظروف العصر ، مع التسلي عن نفسية رد الفعل ، مع التركيز على الغاية والتضحية بكل مطلب آخر حتى تستثير الأمة بنور الحكمة الربانية لا بالعقل الإنساني المعرج ، ومقصدها رفع راية الله في الأرض لا رفع راية المجد القوى أو العظمة المادية .

والذين قاموا بهذه الجهود في الماضي أعلوا دين الله ، والذين سيقومون بهذه الجهود في الحاضر عليهم أن يعلوا دين الله ، وأما الذين يستقطبون اهتمامات الناس بالثقافات والشعارات ، ويلهثون وراء قضية مبتدعة ، إنما يضيعون الإمكانية العظيمة لإحياء الإسلام ، وهو لاء ليسوا من يريدون إصلاح الواقع ، وإنما هم دعاة أمجاد زائفه ومقام شخصية .

مقارنة :

إن الانقلاب الإسلامي الذي تحقق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتملت إنجازاته في (٢٣ سنة) فقط ، وذهب ضحيته (١٠١٨)

شخصاً فقط ، وعدد الغزوات في هذه الفترة لا يتجاوز (٨١) غزواً :
وقد ساهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه في ٣٧ غزواً فقط ،
ولم تحدث معارك إلا في غزوات قليلة فقط ، وعدد القتلى في هذه الغزوات
كما يلي :

المسلمون ٢٥٩
المشركون ٧٥٩ = ١٠١٨

لقد كانت هذه النهاية أكبر نهاية في التاريخ الإسلامي كلها ، وقد
غيرت مجرى التاريخ ، مع أن عدد القتلى في هذه الحركة الكبرى ضئيل جداً.

وجريدة على العادة فإن المتجاهسين من كتابنا وخطبائنا يقارنون هذه الحركة
الإسلامية بثورات غير إسلامية في هذا العصر الحديث ، فيقولون مفتخرین
إن هذه الثورة نجحت في التاريخ بالتصحية بألف نفس فقط .. بينما حققت
الثورة الديمocrاطية في فرنسا والثورة الاشتراكية في روسيا بالتصحية بنفس
يربو عددها على مئات الآلاف .

ولا شك أننا نحب هذه المقارنة لأن فيها غذاء لنفسية الفخر والاعتراض
ولكن ثمة طريقاً آخر للمقارنة لم يتمثله المسلمين قط ، ولعل السبب في ذلك
أن المقارنة بهذا الطريق الآخر تعطينا العبرة ولا تعطينا الفخر .. والعبرة
أصعب وأمر ..

فالطريق الآخر للمقارنة هو المقارنة بين عدد القتلى في سبيل الدعوة
الإسلامية التي ظهرت في الصدر الأول من تاريخنا وبين عدد القتلى في
الحركات الإسلامية التي ظهرت في العصر الحديث .. لقد قام المسلمون
بحركات إسلامية كثيرة مستخددين أسماء الثورة الدينية والجهاد الإسلامي :
ومن الواجب على هؤلاء المسلمين أن يقارنوا هذه الحركات بالدعوة الإسلامية

التي تحقق على يد الرسول صلى الله عليه وسلم مثل مقارنهم الثورات غير الإسلامية في العصر الحديث بالدعوة الإسلامية في القرن الأول .

ولئن دل هنا الطريق الآخر من المقارنة على شيء فإنه يدل بشكل مدهش على أن الحركات الإسلامية الكثيرة تقف نفس الموقف الذي تقفه الحركات الالادينية في هذا العصر الحديث .

لقد ذهب ضحية نضال التحرير في الهند خمسة ألف من العلماء والمصلحين المسلمين ، وذهب ضحية إخراج باكستان الإسلامية إلى الوجود عشرة ملايين شخص ، والذين لا يروا حتفهم باسم الإسلام في سوريا والعراق وإيران ومصر يبلغ عددهم عشرات الملايين .. وأدemi من ذلك وأمر أنه لا نتيجة مكافحة لهذه الشخصيات الجباره على الإطلاق .

لقد قتل ألف شخص في الحركة الإسلامية الأولى قبل أربعة عشر قرناً وانتشرت هذه الحركة مشرقة وغربة على وجه الأرض وغيرت مجرى التاريخ وتأثر بها العالم قاطبة ولا يزال متأثراً بها على مر العصور .. ولكن الحركات الإسلامية التي أثبّتت في العصر الحديث قتل فيها مائة مليون مسلم تقريباً ولكن لم تخرج إلى حيز الوجود قطعة من الأرض حيث يمكن لنا أن نشاهد فيها الثورة الإسلامية الحقيقة ناجحة ومجدية .

وما زاد الطين بلة أن جهودنا أسفرت عن نتائج عكسية ، وأصبحنا مصداقاً لما جاء عن اليهود في الكتاب المقدس : « إن بشكم البذور سيدهب سدى لأن أعداءكم سياكلون محاصليلكم ، وأعداؤكم سيكونون ولاة أموركم ، وإن قوتكم سيفضي ، ولن تثبت أرضكم شيئاً ، ولن تثمر أشجاركم في البساتين »

لقد أصبح تاريخنا الجديد مصدراً لهذه الكلمات ، فقد قمنا بحركات كثيرة باسم الخلافة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي طبقت الآفاق ، وملأت الآذان بالهتافات ، وضحينا بنفوسنا ونفائسنا ففتح عن ذلك أن العالم الإسلامي قد تعمق وأصبح دوبيلات متعددة . . لقد جاهدنا في سبيل الوطن ولما تحرر الوطن سيطر عليه الآخرون ، وبذلنا دماءنا وأموالنا لإبراز باكستان الإسلامية إلى حيز الوجود ، ولما برزت ذهبت السلطة إلى زعماء لا يدينون بالولاء إلى الإسلام^(١) .

وقد أقمنا حركة جباره لإقامة النظام الإسلامي في مصر ، وعندما تقرر مصير مصر غالب علينا المغامرون العسكريون .

ويجري الكفاح من ثلث قرن للقضاء على الدولة اليهودية في فلسطين ويبذل المسلمون كل غال ونقيس في سبيل الوطن الفلسطيني ، ومع ذلك يزداد اليهود قوة وتزداد الدولة اليهودية اتساعاً ، وسوف يستمع المسلمين بما قريب إلى نبأ فاجع آخر هو أن إيران التي حدثت فيها ثورة إسلامية (عنفية) وبعد تضحيات جسيمة ... ستتولى مقاليدها القوى الإلحادية بصورة تدريجية .

إن هذه الحقائق حقائق صلبة وقاسية وهي أكثر صلابة من الحجارة ، وين肯 لأى شخص أن يعيش في عالم الآمال والأمان الوهمية الكاذبة ، ولكن مؤرخ المستقبل لن يصدق هذه الآمال والأمان ، وسيضطر لتسجيل أن الذين أحدثوا الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية قد غيروا طريقة الفكر في العالم على الأقل^(٢) فحلت فكرة (الجمهورية) محل فكرة الاستبدادية

(١) نرجو أن يكون اتجاه الحكومة الجديدة في تطبيق الشريعة بدائية ضرورية (المراجع) .

(٢) وإن كان تغيير معظمه إلى الأسوأ (المراجع) .

وحلت فكرة الاشتراكية محل فكرة الرأسمالية ، أما الذين ماتوا باسم الإسلام - حتى وإن كانوا أكثر عدداً - فإنهم لم يستطيعوا أن يؤثروا أبداً تأثيراً على مجرى الفكر العالمي .

وإن الانقلاب الذي حدث في فجر الإسلام ليدلنا على أن ألف شخص فقط قد رضوا بالتصحية في سبيل الدين ، قبل الله تصحيتهم وانتصر الإسلام في الأرض ، ولكن المسلمين قد ضحوا في الأيام الأخيرة بعدد لا يقل عن عشرات الملايين ولكن مع ذلك لم يحالفهم النصر الإلهي ، وكانوا .. وما زالوا ، مغلوبين .. وإن ذلك لأكبر شهادة على أن معظم هذه التصحيات لم تكن على الصراط المستقيم الذي وعد الله الذين يلتزمون به بالنصر العزيز والفتح العظيم .

إذا قال لك فلاح أنه يذر بنور القمح في التربة فأنبت الأشواك والأعشاب الصحراوية ، فإنه يكذب عليك ، لأنه لا يمكن في هذه الدنيا التي خلقها الله أن يذر إنسان بذور القمح فتخرج من الأرض الأعشاب والأشواك .. إن هذه استحالة ما بعدها استحالة . ولو كانت تصحياتنا في هذا العصر على الطريق التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتغافلوا فيها لكان مستحيلاً أن لا تظهر نتيجة إيجابية .. هذا هو المنطق والواقع .. وبالرغم من ذلك فإذا رضى شخص لنفسه أن يعيش في قبة الأحلام والأمني فسوف يعيش رديعاً من الزمن ، ولكن مع ذلك تقوم القيمة التي تهدم قبة أحلامه ، وسوف يرى أنه يقف بمفرده على أنقاض الأحلام المخطمة

النصر الإلهي :

لقد ورد في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إن تنتصروا الله ينصركم وبثبات أقدامكم » (محمد ٧) ، ومعنى « تنتصروا الله » أن تسيروا بخطوة الله

فإن الله خطأ خاصة لإخراج الأحداث ، وإن ربط جهودنا بخطأ الله ، واستخدام الظروف استخداماً صحيحاً يرافق تحقيق شرط «إن تنصروا الله» والذين ينصرون الله بهذا الطريق فإن الله يثبت أقدامهم ويلغى عليهم . ولا يمكن بلوغ المدى في هذه الدنيا التي خلقها الله إلا بالمشاركة العملية في الخطة الإلهية ، وإن لم يمكن الوصول إلى الغاية بالجهود المتفرقة العشوائية ولنتفهم هذه المسألة أحكى القصة التالية :

لقد تمنى أسقف من الأساقفة أن يكون في ضمن بيته شجرة كبيرة وارفة الفلال ليستظل بظلها ، فرأى أنه إن بذر البذر فسوف يتحول البذر إلى شجرة كبيرة في مدة عشر سنوات ، فدارت في خلده فكرة أخرى ، لقد استأجر أشخاصاً اجتنوا له شجرة كاملة بمذورها وفروعها وأغصانها وأوراقها ونقلوها إلى صحن بيته ، وزرعوها في التربة بعد حفر الأرض . وكان الأسقف مرتاح البال لأنّه قطع مسافة عشر سنين في يوم واحد ولكن في صبيحة اليوم التالي عندما استيقظ من نومه رأى الأوراق قد ذابت والأغصان قد تدلت نحو الأرض .. وبعد عدة أيام رأى الأوراق قد جفت وتتساقطت ، ولم يبق من الشجرة إلا أخشاب ربما تستعمل للوقود .

وقد جاء صديق للأسقف فرأى أنه يمشي في صحن بيته عند الشجرة الذاية الخاوية في اضطراب فسأله عن السبب في توتره ، فأجاب : «لقد كنت مستعجلًا وقوانين الله لا تستعجل» .

وبعدما قص الأسقف هذه القصة لصديقه استعتبر فقال : إن جميع الأحداث التي تحدث في هذه الدنيا يكون فيها العون من الله من جانب العمل من الإنسان من جانب آخر .. وذلك مثل الدولابين القديمين ، فإنه برابط الدولابين القديمين تكون الماكينة وتحرك الآلة ، وهكذا

فهناك عون من الله و دولاب من الإنسان ، فإذا ترابط الدولابان وتسايرا فسوف يصل الإنسان إلى الفوز ، وعلى العكس من ذلك إذا دار دولاب الإنسان بدون مراعاة قوانين الله فسوف ينكسر دولاب الإنسان ، لأن عون الله قوى ، ودولاب الإنسان ضعيف .

إن الله قد بسط التربة الخصبة على سطح الأرض ورما استغرق هذا العمل آلاف السنين لتنبت شجرة عليها ، وقد خلق شمساً وهاجة وألقى يأشعتها المناسبة على هذه التربة ، ثم وفر المياه بتربيات كونية عظيمة ، ونظم تربية الشجرة بتغيير المواسم ، فخلق الله مئات الملايين من «البكتيريا» لتغذى جذور الشجرة أغذية الأنتروجين ، وجميع هذه الترببيات هي قوانين الله وعونه ، فعلى الإنسان بعد ذلك أن يربط دولابه بقوانين الله وسنه ، كي تتحول هذه الإمكانيات إلى شجرة ، فيبدأ الإنسان أولاً بأن يأخذ بذرأً ويدسه في التراب ، فإن هذا العمل هو في الواقع ربط دولاب الإنسان بسن الله ، وما إن يتم هذا العمل ، حتى تأخذ ماكينة الطبيعة تتحرك و تعمل ، وستسفر عن نتيجة ، وستنبت شجرة طيبة توئي أكلها كل حين بإذن ربها ، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان إذا ألقى البذر في الحجارة أو دس (البلاستيك) بدلاً من البذر في الأرض ، أو اجتث الشجرة بجذورها وزرعها في مكان آخر ، فإنه لم يربط دولابه بسن الله ، ولم يربط نفسه بخطة الله .. وبالتالي فلن يقدر له أن يملك شجرة مورقة مشمرة .

وهذا هو الواجب على دعاة الإسلام .. عليهم أن يبدأوا بتفهم الإمكانيات واستخدامها استخداماً صحيحاً ، ولا يقوموا بأعمال طائشة أو جهود عشوائية فقد تحققت الثورة الإسلامية الأولى - كما ذكرنا - لأن عباد الله الخلقين

قد ربطوا دولاتهم بسنن الله وبينما ذهبت كافة تفصحياتنا أدراج الرياح لأننا فصلنا أنفسنا عن سنن الله وظللنا نشتعل بما لا يعنينا بطريقة غير واعية.

دين التوحيد ودين الشرك

يبدو من الإشارات الواردة في القرآن أن الدين الأول الذي شهد له هذا العالم بعد آدم كان دين (التوحيد) وقد بقى هذا الحال قرونًا عديدة ثم بدأت عبادة المظاهر التي تسمى بالشرك فتعذر على الإنسان أن يتوجه إلى ما لا يراه ، فانصرف إلى من يراه ، ولو كان يعتقد بوجود الله ، ولكنه أخذ يعبد الشمس والقمر والكواكب والجبال والبحار حتى بدأ يسجد لكل شخص حكم على الأرض ، وبعد عهد (التوحيد) الذي بدأ بعد آدم بألف سنة تقريبًا ظهر عهد الشرك وانقضى عهد الغلبة الفكرية للتوحيد وسيطر الشرك على الأذهان .

لقد بعث الله برسله بعد هذا الفساد الذي شاع في دين التوحيد ، ولكن لم يحظ هؤلاء الرسل قط بقوة أو شعبية ليستعيد دين التوحيد مكانة الغلبة والاستيلاء ، ولقد بعث هؤلاء الرسل في كل نواحي الأرض ، ووفقاً لحديث شريف فإن عدد هؤلاء الرسل بلغ مائة ألف تقريباً ، ولكن ما من رسول إلا وقد استهزء به في زمانه .

وإن الإنسان عندما ينكر أمراً طيباً فلا بد أن يكون ذلك على أساس شيء . كأن يكون في غنى عنه ، أو عنده بديل عنه . فما هو هذا الغباء ياترى إن الجواب يرد في هذه الآية :

« فلما جاءتهم رسليهم بالبيانات فرحاوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

والمراد بهذا العلم في هذه الآية هو الدين الفاسد الذي أصبح مقدساً على مرور الأيام ، وإن مثل هذا الدين الفاسد الموروث يمكن دينا قد انغرست - للأسف - جذوره ، فربط نفسه بأسماء الصالحين والأولاء ، وعلى أسمه تبني العمارات الشامخة من التفود والسلطة ويقوم عليه الميكل القوى ، ويتبوأ أسمى مكانة بتأثير التقاليد والتاريخ .

لقد كان عند هذه الشعوب دين راسخ متين قائم على الشرك .. وقد ظهر إلى جواره دين يدعى إلى التوحيد ، لكن صوته لا يكاد يسمعه أحد في بدايته ، وقد بدا دين الحق وكأنه الداعري التي لم تحتشد لتأييدها تصديقات التاريخ . وليس عند الدين الجديد لإثبات دعواه إلا الدليل اللغظى لا الدليل التفعى .. وبالنالى فعندما يقارنه القوم بدين الآباء التفعى فسرف يرون أنه أقل فائدة من دين الآباء . لقد كان المسيح عليه السلام بدون مأوى ، وكان يأوى إلى شجرة لينام تحتها ، بينما كان إلى جواره (الرئيس الدينى للمهود) يمشى في خيلاء ، ويعيش في بحيرة ، وفي مبنى عظيم هو الميكل . فكيف يرى الشعب ذلك الشخص الذى ينام تحت الشجرة على الحق ?? وبخاصة بمقارنته مع ذلك الشخص الذى يتبوأ مكانة عليا في الميكل ، ولذلك تسهiziء الشعوب بالرسل ، وتنكر رسالتهم على أساس تشبيها بذيل الأكابر الذين ليس منهم الأنبياء والرسل ، فكيف يمكن لهم أن يقدروا شخصاً عادياً ؟؟

لأنهم لم يكونوا يريدون أنبياءهم دعاة للحق ، بل يريدونهم أبطالاً لتاريخهم ، حتى يكونوا مبعث فخر واعتزاز .

إعلان كلمة الله

لعلك قد رأيت على مفرق الشوارع عموداً فيه إشارات من النور الأحمر والأخضر ويشير النور الأخضر إلى السماح بالمرور للعربات ،

أما النور الأحمر فيشير إلى عدم السماح بالمرور ، وإذا خالفت سيارة هذه النظم والقوانين يصبح سائقها أهلاً للعقوبة .

إن (داعي الحق) يكون في غمار الحياة بثابة (عمود) على مفرق الطرق ، وهو مأمور من الله أن يقف على مفترق الطرق ، وأن يدل الناس على الصراط المستقيم ، ويخبرهم عن الطريق الذي يؤدي إلى الجنة .. والطريق الذي يؤدي إلى النار .

«وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

لقد جاءت الرسل تترى في هذه الدنيا بعد أن انقرض عهد التوحيد الذي بدأ منذ أن هبط الإنسان على هذا الجزء من الكون ، لقد جاءوا مرشدين للناس .. حباهم الله بالعلم الصحيح ليعلموا بنى جلدتهم ، وينخلقوا فيهم التمييز بين الخبر والشر ، والحق والباطل . وقد أدى كل رسول ما ألقى إليه من مسؤولية ، وبينوا الحق في لغة مفهومة ، وأنوا بكل البراهين والحجج ، حتى وصلت رسالة الله إلى المخاطبين ، مبينين أن من آمن برسوله استحق الجنة ومن عصاه وتمرد عذاب النار .

ولكن الله أراد أن يظهر دينه لا أن يعلنه فقط .. والإعلان هو أن يدعو الناس إلى الحق ، وأن يعرض الحق مع مراعاة جميع جوانب الحكمة والموعظة ، حتى يتبيّن أنه الحق ، وحتى لا يمكن لأحد أن يختج بقوله : إنني لم أسمع عن الحق ، ولم أكن أعرف طريق الهدى في الحياة الدنيا .. وهذا هو (تمام الحجة) ؟

وأما (إظهار الدين) فهو خطوة أخرى بعد تمام الحجة ، ومعناه أن تكون فكرة الدين فكرة غالبة في العالم . وأن تكون سائر الأفكار

الأخرى مغلوبة على أمرها .. وهذا هو إعلاء كلمة الله بتعير آخر ، وليس المعنى الأصيل وال حقيقي لإظهار الدين وإعلاء كلمة الله مقتصر على تنفيذ الحدود والأوامر الشرعية ، بل المعنى الحقيقي هو المهيمنة الفكرية ، مثل تلك الغلبة التي تحققت للدينOCR اطية في بعض البلدان ، وللاشتراكية في بلدان أخرى^(١) ، وللعلوم التجريبية على الفلسفة القياسية في هذا العصر .

وقد أحرزت بعض العلوم في هذا العصر العلمي قصب السبق العلمي ، وفقدت بعض العلوم الأخرى امتيازها ومكانتها الفائقة .

المطلوب من المسلمين هو مثل هذه الغلبة الفكرية لدين الحق على دين الباطل ..

ومعروف أن الله قادر مطلق ، وكان أهون عليه أن يجعل الحق ظاهراً على الباطل ، كما جعل ضوء الشمس غالباً على الأضواء الأخرى ، ولكن هذه الدنيا إنما خلقها الله دار الامتحان ، وسنة الله أن يحدث الأحداث المطلوبة في هذه الدنيا بطريق الأسباب ، لا بطريق (المعجزات) وهذا خلق الله أوضاعاً في إطار الأسباب ، لتحقيق هذا الهدف ، كما أنه أرسل رسولاً يتمتع بعية المهيمنة بوجه خاص ، ويعمل عمله وفق سنة الله لإظهار دين الحق لا لإعلانه فحسب ، لتنعم نعمة الله على عباده ولتفتح عليهم أبواب الرزق التي ظلت مغلقة بسبب سوء تصرفاتهم ووجود الفساد في أعمالهم ، وهذا هو الذي ورد في القرآن ، في قوله تعالى :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله من نوره ولو كره الكافرون »

(١) لكن مع الاحتفاظ للإسلام بوسائله الكريمة (المراجع) .

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

تكوين أمة جديدة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة إبراهيم » .. ودعا إبراهيم حين كان يبني الكعبة : « رينا وابعث فيهم رسولاً » (البقرة ١٣٩) ولكن الفترة الزمنية التي تحققت فيها دعوة إبراهيم تمت إلى حوالي ألفين وخمسمائة سنة ، وهي الفترة ما بين دعاء إبراهيم ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم .. والأمر الذي يحمل على التفكير والتأمل هو أن زكريا عليه السلام عندما دعا الله أن يرزقه ولداً ، لم ينقض إلا عام واحد حتى استجيب دعاؤه ولد يحيى عليه السلام .. وحين دعا إبراهيم مثل ذلك الدعاء فإن الاستجابة الفعلية تحققت بعد ألفين ونصف ألف عام .. فما الفرق بين هذين الأمرين المختلفين ؟

إن الفرق هو أن يحيى عليه السلام كان عليه أن يؤدي دوراً مؤقاً ، فقد بعث ليفضح مكائد اليهود ، ثم يقتل ، ليبرهن بقتله على أن اليهود قد بلغوا من القساد شأواً بعيداً ، حتى انقطع أمل إصلاحهم ، وكان الأوان قد حان ليتم خلعهم ، حتى يحمل قوم آخرون مسؤولية الكتاب الإلهي.

ومقابل ذلك كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدحض الشرك وأن يتبوأ التوحيد مكان الفكر الغالب المسيطر .. وكان العمل يقتضي تكوين أمة صالحة وإيجاد أوضاع مواتية منسجمة مع السنن الكونية . وكانت هذه هي خصائص الأمة الصالحة ، كما كانت هذه هي الأوضاع التي أخذ بإيجادها ألفين وخمسمائة سنة .

وبناء على هذه الخطة أمر سيدنا إبراهيم أن يخرج من المنطقة المليئة (م ٩ - أحياء الإسلام)

بالشوائب الحضارية في العراق ، وأن يسكن ابنه (إسماعيل) وأمه (هاجر) في واد غير ذي زرع في الحجاز ؛ حيث كانت الأرض جدباء غير قابلة للزراعة ، ولذلك كانت بعثة عن العالم المتحضر حين ذلك ولذلك كانت الأرض صالحة لبناء قوم غير ملوثين بأوضاع المدنية وسوءاتها ، ليكون موابع أولئك القوم مصنونة من الأخلاق الدنسة : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (البقرة : ١٣٨) وإن هذا التأخير المتard إلى (٢٥٠٠ سنة) في استجابة الدعاء الفعلية ليبرهن على أن المقصد إنما هو تكوين أمة ذات ميزات وموابع حيوية بطريق التناслед الطبيعي في بيئة خاصة كي تحمل رسالة الدين الإلهي ليكون الأمة مطهرة من القائص الصناعية التي سببت الفقر في الرجال المهووبين خلال عهود خلت .

وعندما استتببت الأمور وتحقق الشرط والأسباب ، وتوافرت المؤهلات — بعث الله النبي الغالب ، فولدته آمنة بنت وهب من بنى هاشم واستجيب الدعاء الذي كان قد جرى على لسان إبراهيم قبل (ألفين وخمسينات)

لقد أسكن إبراهيم بأمر من الله (هاجر وإسماعيل) في مكان تقع فيه مكة في هذا الوقت ، وكان المكان قاحلاً جديداً ليس فيه إلا الحجارة الجرداء ، ولما انتهى ماء القرية واشتد الظماء وأخذ إسماعيل يضطرب من الظلام ظهر ماء زمزم في أرض جدباء ، فكأن الله قد أعلن أنه لن يترك إبراهيم وإسماعيل بعد أن أرسلهما إلى هذا المكان الشاق .. إن هذا الأمر هو أمر الله وبالتالي سوف ينصره الله في كل مرحلة حرجة حاسمة ، ولما بلغ إسماعيل عنفوان شبابه رأى أبوه في روبياً أنه يذبحه ، فرأى أن ذلك أمر الله ، ورضي بذبح إسماعيل ، وأوشك على ذبحه ، ووضع السكين على رقبته ، حتى فداء الله بكبس عظيم ، وأمر الله بذبحه بدلاً من إسماعيل .

ويعتبر هذا العمل في الواقع إشارة من الله إلى أنه طلب أمرًا عظيمًا وتضحيه كبيرة ، والغرض هو امتحان العاطفة والشعور وليس القتل أو الذبح ، بل هو توجيه الشخصية لغرض كبير آخر.

وعندما كبر إساعيل تزوج بفتاة من قبيلة (جرهم) التي كانت قد عمرت مكة ، وذات يوم جاء إبراهيم من الشام راكبًا فرسه ، ولم يكن إساعيل في البيت بل كانت هناك زوجة التي لم تكن تعرف حمامها ، فسألها إبراهيم عن إساعيل . فقالت : ذهب للصيد ، ثم سألاها عن الحالة المالية فشككت من قلة المال والحياة الخشنة ، فودعها إبراهيم وقال لها : عندما يأتي إساعيل بلغيه سلامي وقولي له « غير عتبة بيتك » ، وعندما سمع إساعيل هذه القصة أدرك أن أباها جاء ليتفحص حاله وفهم أن كلمة « غير العتبة » إنما هي استعارة معناها (اهجر هذه الزوجة واتخذ زوجة أخرى) لأن الزوجة الموجودة لا تصلح لإيجاد جيل يريده الله لتنفيذ إرادته في واقع الدنيا فطلق إساعيل زوجته وتزوج امرأة أخرى ، ثم حدث أن عاد إبراهيم مرة أخرى راكبًا فرسه ، ولم يكن إساعيل موجوداً في البيت هذه المرة أيضًا فسأل إبراهيم نفس الأسئلة ، فأثبتت الزوجة الجديدة الثناء العاطر على إساعيل وقالت : « لقد أعطانا الله خيراً كثيراً فله الشكر » ، فقال لها إبراهيم : عندما يأتي إساعيل بلغيه سلامي وقولي له « ثبت عتبة بيتك » يعني أن هذه الزوجة الجديدة تصلح لتنفيذ إرادة الله التي اخترطها لعباده ، فحافظ على علاقتك بهذه الزوجة الطيبة .

وهكذا في منطقة عربية متزوقة نائية أخذ جيل جديد يتكون من سلالة إساعيل ، وتمثل ذلك الجيل في النهاية في قوم يدعون : بنى إساعيل ، وبعث من هؤلاء القوم في آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم ، ليحمل هذا الجيل مسؤولية التاريخ العظيم الذي أراد الله أن تناط به .

إن هؤلاء القوم الذين نشأوا في جزيرة العرب وشبوا في الكثبان الرملية والصحراء القاحلة الجدباء ، كانوا يتمتعون بميزات يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي « المروءة » ومعنى (المروءة) الشهامة والرجولة .. وهي كلمة كانت تستعمل لإظهار جوهر الإنسانية عند العرب .. يقول شاعر عربي :

إذا المرء أعيته المروءة ناشأ فمطلبها كهلا عليه شديد

وقد درس المؤرخ « فيليب حتى » تاريخ العرب دراسة مستفيضة ،
ومن حصاد دراسته يقول :

(.. إن القوم الذين أخرجوا إلى الوجود في هذه القرون كانوا قوماً عجباً من أقوام هذه الدنيا ، وكانوا يتسمون بالميزات والمواهب التي من أهمها : الهمة والصبر والمثابرة والجلد ومراعاة حقوق الجيران والرجولة والشهامة والسخاء وقرى الضيوف واحترام النساء والوفاء بالوعد .)

خير أمة

ومن خلال عمل استمر في التاريخ ٢٥٠٠ سنة ، أخرجت أمة كانت أحسن الأمم من ناحية الصفات الإنسانية « كفتم خير أمة أخرجت للناس » (آل عمران) ، وقد قال عبد الله بن عباس : إن المراد من « خير أمة » جماعة المهاجرين ، وهم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة (تفسير بن كثير) . إذ كان المهاجرون في الواقع رمزاً لهذه الجماعة .. لكننا نرى أن المراد من (خير أمة) المسلمين الذين نسميهم (أصحاب الرسول) ، والمراد أيضاً جميع الأشياع المخلصين للأنبياء على اختلاف عصورهم وأمصارهم ، بشرط واحد هو أن يكون دينهم الذي يتبعونه غضاً طرياً نقياً كأن عهده بالوجود أمس :

إن الأمة الإسلامية التي نشأت في بلاد العرب كانت تمتاز بميزة نادرة ، وهي ميزة إدراك الحق بمجرد الدليل ، والانقياد للحق البسيط الذي يخلو من عنصر الهرجة والتزييف .

إن تلك الأمة التي نشأت وثبتت تحت الشمس الساطعة ، والسماء الزرقاء والفيافي الواسعة .. تمتاز بالقدرة على معرفة الحقيقة بشكلها البسيط المجرد عن الشوائب وهي تسلم نفسها إلى « الحق » الذي لا يعود عليها بفائدة دنيوية في الظاهر .

إن هذه الميزات هي التي جاءت في وصف عبد الله بن مسعود لصحابة الرسول ، بقوله :

(.. كانوا أفضل هذه الأمة ، أبْرَهَا قلوبًا وأعمقها عالماً وأقلها تكلاً .. اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ..).

وإن أهم ميزة فقدتها عصور الشرك هي النظر إلى الحق بطريقة سطحية فهى لا ترى الحق إلا في المظاهر البارزة والمحسوسات ، وقد حرمت من القدرة على رؤية الحق بطريقة مجردة من المظاهر .

وهذه هي العقبة التي كانت تقف في سبيل إدراك الحقيقة ، ولذلك ما بعث النبي إلا استهزأ به قومه .

إن المشركين لم يكونوا منكرين لله ، ولكنهم صهروا وجود الله في بوتقة (المحسوسات) ولم يكونوا قادرين على أن يعرفوا الله الموجود في الغيب وقد افترضوا أشياء من المحسوسات والملديفات على أنها تماثيل (الله) فأقبلوا عليها راكعين وساجدين ، سواء أكانت هذه المحسوسات أشياء مادية أم بشرية .. وهذا هو الضعف الذي أدى إلى إjectionهم عن الإيمان بالرسالة فكلنبي عندما يبعث يكون مجرد إنسان مثل الناس في زمانه ، ولا تحوطه الأجداد التاريخية التي تحوطه بعد مضي الزمان .

دعا ابراهيم ربہ

لقد دعا ابراهيم ربها ، فقال:

« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني ان نعبد الاصنام . رب الهن
أصلان كثیراً من الناس . فمن تبعني فلانيه مني ومن عصانی فلإنك شفاعة رحيم
ربنا إنی أسكنت من ذریتی بواد غير ذی زرع عند بيتك المحرم . ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفتدة من الناس هوى إليهم وارزقهم من الميراث
لعلهم يشكرون» (ابراهیم : ٣٥ - ٣٧) .

ولقد بلغ استيلاء الشرك في عهد إبراهيم عليه السلام الذروة ، وكانت العابد تقام من أبنية فخمة كبيرة ، وقد تعذر الإنسان أن يفكر منفصلاً عن الإطار الفكري القائم على الشرك ، فأراد الله في ذلك الزمان أن يخرج إلى حيز الوجود جيلاً جديداً في رمال وعثاء وجبال جرداء ، وكانت الخطوة أن يتم تربية أفراد في منطقة ثانية ، حيث يسهل إدراك الحقائق ويرتفعون عن الظواهر ، ومن هذه الصفة المنتخبة من الناس تم إخراج أمة وصفها القرآن بالكلمات التالية :

«ولكن الله حبب إلينكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إلينكم الكفر والفسق والعصيان أولئك هم الراشدون» (الحجرات : ٧)

ونحن لا يمكن لنا أن ندرك معنى هذه الآية إلا إذا رجعنا إلى الماضي عندما نزلت هذه الآية قبل ألف وخمسين سنة ، عندما حدث هذا الانقلاب العجيب ، وهو إيمان أصحاب الرسول ، إنهم أدركوا إلهًا غير مرئي في زحمة الآلهة الكثيرة المرئية ، ثم صبحوا في سبيله بكل ما كانوا يملكون من نفوس ونفائس ، إنهم أدركوا رسولاً مجرداً من الزهو المادى من بين مثارات العظمة الشامخة ، ثم سلموا نفوسهم إليه ، وإن ديناً غريباً مجرداً

من كل مكانة من العزة والجاه قد أصبح محبوباً لديهم إلى حد أنهم لم يعد صعباً عليهم تقديم أية تضحيه - مهما كثرت - في سبيله .

وبحمل القول أنهم أدركوا الصدق المجرد في هذا الدين ، قبل أن يظهر التاريخ أمجاده وعظمته ، وقبل أن يصبح هذا الدين رمزاً للفخر القومي والحضاري .. وإن هذا الإيمان الصادق المجرد كان يعني التضحية الكاملة ، دون انتظار أي مقابل من الحظوة أو المكانة أو النفع الذاتي أو القومي .

وناهيك ببيعة العقبة الثانية لفهم هذه الحقيقة ، فعندما ضاقت الأرض بالإسلام في مكة ، بدأ الإسلام ينتشر في المدينة حتى جاس خلال كل دار فيها تقريراً ، فأذمع في هذا الوقت بعض الناس أن يذهبوا إلى مكة ، ويبايعوا بيعة النصرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبوا منه ترك مكة إلى المدينة .

يقول جابر الأنصاري : عند ما بلغ الإسلام إلى كل دار في المدينة تشاورنا وقلنا : إلى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحال ، ثم ائتمرنا جميعاً فقلنا : حتى متى نترك رسول الله يلاحق ويطارد في جبال مكة وحتى متى نتركه عرضة للسفلة الذين يحكمون بالظاهر السطحي ويقولون إنه ليس برسول الله ، ولو كان رسول الله لما رزى بهذه المصائب .. وهكذا أزمتنا الرحيل إلى المدينة .

ففي هذه المرحلة الدقيقة الخامسة من تاريخ الإسلام جاءت جماعة ينيف عددها على سبعين ، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف كانت هذه البيعة ؟ وكم كان الوضع مفعماً بالخطر .. ؟

إن هذا وذاك يظهر لنا عن طريق عضو بارز في هذه الجماعة المؤمنة وهو كعب بن مالك الأنصاري .. إنه يقول : إننا أخذنا الطريق إلى مكة

باسم الحج مع قبيلتنا التي أرادت زيارة الكعبة ، فعرجت القبيلة على مكان بالقرب من مكة ، فلما أقبل الليل نمنا مع الآخرين ، وعندما انقضى ثلث الليل ، وكان الناس نائمين فمما مستررين بناء على أمر رسول الله ، ومشينا إلى مكان محمد نسلل القطا مستخفين (١) ..

لكم كانت عجيبة تلك الساعة التي يتسابق فيها بعض الناس إلى إيمانبني رفشه قومه ، وحاربوه في وطنه ، وأخرجوه من الطائف والدم يسيل من بدنـه عندما رموه بالحجارة ، وقد رفضت جميع القبائل إعطاءه اللجوء والأمان .

في هذه المرحلة الدقيقة اعترفت جماعة من المدينة بصدقه وآمنت برسالته ولبست دعوته ، وعندما نهض أنصار المدينة للبيعة سأله سائل : هل تدرؤن على ما تبايعون ؟ .. هذه بيعة على هلكة الأموال والأولاد . فقالوا : نعم على هلكة الأموال والأولاد ، وسألوا إن وفيـنا هذا العهد فـما جزاـنا ؟ .. قال رسول الله : الجنة . قالـوا : مـد إلينـا يـدك نـبـاعـ على ذلك.

هذه البيعة تعنى تسليم النفس بصدق لا شـكـ فيه ، وتضحـية بكل تقـيسـ في سـيـلـ حقـ لمـ يـشـتـدـ عـودـه .. وـكانـ هـذـاـ حـدـثـاـ عـظـيـماـ لـمـ تـصـافـحـ عـبـونـ السـماءـ إـلاـ مـرـةـ وـاحـدةـ فـيـ التـارـيخـ .. لـاـ قـبـلـهـ وـلـاـ بـعـدـهـ ..

تركـ ماـ لـاـ يـعـنـىـ ، وـعـدـمـ الـتـعـرـضـ لـلـمـسـائـلـ غـيرـ الـفـرـورـيـةـ

عـندـمـاـ بـعـثـ رسـولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ كـانـتـ تـلـكـ المسـائـلـ مـوـجـوـدـةـ وـهـىـ مـاـ نـعـنـىـ بـهـ الـآنـ (ـ المـسـائـلـ الـقـومـيـةـ)ـ وـ (ـ الـوـطـنـيـةـ)ـ

(١) مـسـيـرةـ ابنـ هـشـامـ (ـ بـيـعـةـ الـعـقـبـةـ الثـانـيـةـ)ـ .

الى تثير الحركات ، وتكون القيادات وتوثر هذه المسائل على نخبة المثقفين فيهنوون بها ويجعلون منها زعامة ، ويلهبون بها عواطف الشعب ..

لقد كانت هذه المسائل موجودة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يقبل عليها ، ولو أقبل على هذه المسائل القومية والوطنية لما كان ذلك التزاماً منهج الله ، ولربما كانت كافة الفرص التي وجدت من خلال عمل استمر ألفين وخمسمائة سنة عرضة للضياع .

لقد استولت الحبشه في عام (٥٣٥ م) على المناطق الحدو دية المجاورة لها من جزيرة العرب ، وعلى اليمن ، وكان أبرهة عاملاً لملك الحبشه على اليمن ، وكان طائشاً لدرجة أنه أغاث في عام ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم - على مكة ، وأراد أن يحطم بناء الكعبه .

وقد سقط حكم الحبشه لليمن بعد ما استمر (٥٠ سنة) وتلاه حكم امبراطور الفرس الذي عين (باذان) عاملاً على اليمن ، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن نبوته بلغ ذلك الخبر كسرى الفرس ، فأمر عامله باذان أن يقابل ذلك الشخص الذي يدعي النبوة ، وأن ينصحه أن يكف عن دعوى النبوة ، وإذا لم يكُف فعليه أن يبعث برأسه إليه « وإنما قابعت برأسه » (سيرة ابن هشام) .

ويتبين من متابعة هذه الأحداث أن الاحتلال الأجنبي للحدود قد أوجد مشكلات خطيرة .

وفي هذه الظروف كان الطريق مفتوحاً أمام رسول الله أن يلهب مشاعر القوم ضد الاحتلال الأجنبي ، وأن يثير النعرة الوطنية ولو فعل هذا رسول الله كما فعل قادة الأمة الإسلامية وسادتها في هذا العصر خالفة منهج الله ، لأن التخطيط الإلهي كان يتضمن أن يتتجنب الرسول طريق

التزاغ والصدام ، وأن ينهض بعهدة الدعوة المحردة ، مخلصاً وجهه له سبحانه زاهداً في المسائل التي تعبّر عنها بالمسائل القومية ، وقد امتنع الرسول للتخطيط الإلهي فكانت النتيجة أن سجل التاريخ أن « باذان » نفسه قد اعتنق الإسلام ، واعتنقه معه معظم المسيحيين من سكان آنبن ، مما يعلمنا أن المدف الذي قد لا يتحققه زعيم قومي بحركة سياسية يمكن أن يتحقق بصورة أوسع وأعمق عن طريق الدعوة .

• • •

ويحدثنا التاريخ أن أبا هلب قد أصبح رئيس قبيلة بنى هاشم بعد وفاة أبي طالب ، جرياً على عادة القبيلة ، ومع ذلك فقد رفض القيام بحماية الرسول الهاشمي ، مما أخاً الرسول إلى طلب حماية القبائل الأخرى .. ومن أجل ذلك ذهب إلى القبائل الكثيرة طالباً حمايتها ، فالتحق برئيس قبيلة تسكن على حدود البلاد اسمه « شيبان بن ثعلبة » طالباً مساعدته فقال له رئيس القبيلة : إن أرضنا متاخمة للأرض كسرى ، ونسكن هذه الأرض حسب شروط أخذها كسرى علينا ، وهي « أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرره الملوك .. ». (سيرة ابن كثير) .

ويتجلى من هذا أن التقوذ الأجنبي لم يحدث مسائل سياسية وقومية فحسب ، بل حال دون الدعوة ونشر الإسلام ، ولكن الرسول مع ذلك لم يتخذ طريق (التضليل) بحجج أن الدعوة لا يمكن القيام بها إلا بعد تذليل هذه الصعاب ، وإزاحة العقبات الخارجية ، ولو أنه أثار الكفاح في بادئ الأمر خالفة الخطة الإلهية ، لأن إرادة الله قضت أن يجعل الروم والفرس في حرب وصراع مدة عشرين سنة ، حتى تنهك الحرب

البلدين وتعتصر دماءهما ، حتى يتبرس للمسلمين فتحهما بعد أن يتدرّبوا على غروات محدودة مناسبة لقوتهم ، ولو أقتل المسلمين في طفولة تارixinهم لكانـت النـتيـجة عـكـسـية ، وـلمـ تـكـنـ لـتـظـهـرـ الفـتوـحـاتـ الكـثـيرـةـ المعـرـوـفةـ .

لقد هـيـاـ اللـهـ أـحـسـنـ الـظـرـوفـ وـالـإـمـكـانـاتـ لـيـنـبـتـ الـبـنـاتـ طـبـيـعـيـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ ، وـلـمـ يـقـ إـلـاـ أـنـ يـوـدـيـ الـمـسـلـمـ وـاجـبـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ لـتـحـوـيـلـ هـذـهـ الـإـمـكـانـاتـ إـلـىـ وـاقـعـ مـعـاـشـ ..

لقد وضـعـتـ العـنـيـاهـ الإـلـهـيـةـ التـرـبةـ الـخـصـبـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ .. وـلـنـهـ تـرـبةـ لـاـ تـوـجـدـ فـيـ مـكـانـ آـخـرـ فـيـ الـكـوـنـ الـمـلـوـعـ .. وـلـكـنـ مـعـ هـذـهـ الـخـصـبـةـ فـإـنـ التـرـةـ لـاـ تـخـرـجـ إـلـاـ إـذـاـ وـجـدـتـ الـرـطـوبـةـ وـالـمـيـاهـ .. وـبـدـونـ هـذـهـ الـمـيـاهـ سـوـفـ تـبـقـيـ الصـحـارـىـ فـيـانـ جـدـباءـ ..

وـأـنـتـ أـيـهـاـ «ـالـزـارـعـ الـمـسـلـمـ»ـ عـلـيـكـ أـنـ تـعـيـ بـحـسـلـ الـإـسـلـامـ هـذـاـ ،ـ لأنـ الطـبـيـعـةـ لـنـ تـعـانـ هـذـهـ الـحـقـائـقـ بـعـكـرـ الصـوتـ ،ـ بلـ تـبـيـهـاـ بـإـشـارـاتـ خـفـيـةـ وـعـلـيـكـ أـنـ تـدـرـكـ هـذـاـ كـلـهـ بـلـغـةـ الـإـشـارـةـ ،ـ فـتـقـومـ بـزـرـعـ الـبـذـورـ فـيـ الـأـرـضـ أـوـ تـرـوـيـهـاـ ثـمـ تـبـذـرـ بـذـورـهـاـ ،ـ وـهـذـاـ هـوـ دـائـمـاـ (ـطـرـيقـ الدـاعـىـ)ـ وـطـرـيقـ الدـعـوـةـ

إـنـ اللـهـ خـلـقـ أـحـسـنـ الـأـوضـاعـ لـدـعـوـتـهـ فـيـ مـحـيـطـ الـعـرـبـ ،ـ وـلـكـنـ كـانـ مـنـ الـضـرـوريـ أـنـ تـرـاعـيـ الـحـكـمـةـ الـرـبـانـيـةـ فـيـ مـسـيـرـةـ الـدـعـوـةـ ،ـ وـلـوـ خـالـفـتـ خـطـةـ الـمـسـلـمـينـ الـخـطـةـ الإـلـهـيـةـ لـاـ فـازـوـاـ بـهـذـاـ الـانتـصـارـ وـالـنجـاحـ ..

• • •

الآخرة خاتمتنا :

إـنـ الـمـبـدـأـ الـأـسـاسـيـ لـدـعـوـةـ الرـسـولـ هـوـ إـعـطـاءـ الـأـهـمـيـةـ الـكـامـلـةـ لـمـسـأـلـةـ الـآـخـرـةـ دونـ أـنـ يـجـعـلـ أـيـةـ مـسـأـلـةـ مـسـأـلـةـ الـدـنـيـاـ عنـاـنـاـ لـدـعـوـةـ ..

والسبب في ذلك أن مسألة الآخرة هي المسألة الأساسية والجوهرية للإنسان ، ولنحوها مسائل أخرى إلا مسائل عابرة وإضافية ، ولا طريق لسعادة الإنسان دون العمل للأخرّة ، كما لا طريق لشقائه إلا إهانتها.

ولأن كل نجاح وانتصار في الحياة يتعلّق بشخصية الإنسان ، فلهذا كانت الشخصية الحقيقة المستقلة تتشكل بعقيدة الآخرة العميقـة التأثير ، حيث إن هذه العقيدة تعني أن الإنسان لا يملك نفسه ولا هو حر في تصرّفاته وإنما هو في كل حين يخدر الآخرة ويرجو رحمة ربـه ، فمن شأن هذه العقيدة أن تترعـ من الإنسان حريةـته الحيوانية، وتفضي على ميلـه نحو الإباحـة والقوصـى الأخـلاقـية ، وتجعلـه مقيـداً ومسـئلاً .

ولو أن مسلماً تبع آيات القرآن بذهنه مفتوح خالـ من المخلفـات والرواسب ، فسوف يرى أن مسألة الآخرة تشـغل أكبر حيزـ من الفكر ، وهـى رأس المسائل ، ومن خلـالـها ذكرـت مسائلـ أخرى ، ولكنـها جاءـت عـرضـاً لا أصلـاً ..

ونـعـة مبدأ أساسـي آخر يـلزمـنا للـدـعـوة ، وهو عدم إثـارة نـزـاعـ مـادـي بينـ حـمـلةـ الدـعـوةـ والمـدعـوـينـ حتـىـ لا يـصـبـحـ المـدعـوـ (ـفـرـيقـاًـ) وـ(ـخـصـماًـ) ولوـ كانـ ذـلـكـ علىـ حـسـابـ المـصالـحـ الشـخـصـيةـ .ـ وهذاـ مـثالـ رـائـعـ لـذـلـكـ نـقـدـمهـ منـ سـيـرـةـ الرـسـوـلـ فـيـ صـلـحـ الـحـدـيـيـةـ حيثـ أـثـارـتـ قـرـيـشـ حـرـباًـ ضدـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ حتـىـ أـصـبـحـ الـمـسـلـمـوـنـ وـغـيرـ الـمـسـلـمـيـنـ فـرـيقـيـنـ مـتـخـاصـمـيـنـ ،ـ وـأـخـذـتـ أـمـورـ التـأـهـبـ وـجـمـعـ السـلاحـ وـالـعـتـادـ الـوقـتـ كـلـهـ .ـ

فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ قـبـلـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ كـلـ ماـ طـلـبـتـ قـرـيـشـ وأـبـرـمـ معـهـاـ مـعـاهـدـةـ السـلـامـ لـعـشـرـ سـيـنـ ،ـ وـكـانـتـ هـذـهـ المـعـاهـدـةـ فـيـ الـظـاهـرـ هـزـيـمةـ لـالـمـسـلـمـيـنـ ،ـ وـلـذـلـكـ نـظـرـ بـعـضـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ هـذـهـ المـعـاهـدـةـ نـظـرةـ

الازدراء ، وحسبوها ذلة ، ولكنها كانت عند الله فتحاً مبيناً ، لأنها مكنت من الانتهاء من جو التوتر ، والنزاع والخصومة ، وبالتالي استوتفت علاقة الداعي والمدعويين المسلم وغير المسلم .

وما إن أصبح العرب في مكان (المدعو) بدلاً من مكان (الخصم) حتى بدأ الإسلام ينتشر بينهم بسرعة ، حتى بلغ عدد المسلمين في غضون ستين ضعفين ، وغدت مكة التي تعذر فتحها بالحرب مفتوحة للMuslimين . . . بالدعوة . ॥

التسامح والعفو

و جانب آخر نستجليه من دعوته صلى الله عليه وسلم وهو ضرورة الحرص على التسامح والعفو مع المدعو على الرغم من الانتصار عليه ، ونحن نرى أمثلة لهذا السلوك المتسامح سائدة في السيرة النبوية ، لقد كانت قريش تحت تصرفه وبقبيضه بعد فتح مكة ، وقد أذاقوا المسلمين قبل الفتح ألواناً من الظلم والقسوة ، وعرضوهم لكل شر وبلاء ، ولكن رسول الله لم يعاقب أحداً على جرائم اقترفها في الماضي ، بل عاملهم معاملة العفو والتسامح .. ولما حضرت قريش طائعة قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل بعض الناس لشدة فسادهم ، ثم عفا بعد ذلك عن كل شخص طلب العفو منهم ، أو شفع فيه أحد المسلمين

ولقد كان وحشى بن حرب في غزوة أحد قد قتل حمزة عليه السلام وراحت هند بنت عتبة تمثل بجثته ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خرجت الكلمةتهديد من لسانه في ذلك الحين وهي (لئن أظهرتني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم) (تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص ٣٥٢) وقد كانت الجماعة التي أمر الرسول بقتلها تضم من هولاء وحشياً وهداً ، ولكن عندما وصلوا إليه ، وطلبا العفو عفا عنهم ، لأن هذه الطريقة في التسامح كانت تلاميذ منهج الله.

إن مبدأ التسامح والعفو هو عين الحكمة ، فإن الإنسان ليس حبراً فإن الحجر إذا انكسر لا يظهر رد الفعل تجاه الأحجار الأخرى ، وأما الإنسان فهو جزء لا يتجزأ من مجتمع حيوي ، فإذا أصيب الإنسان بضر

أو قدم ظلماً أو عدواً تثور ثائرة الآخرين من حوله ، فتتشهي الأعمال العنيفة والتخريبية .

إن الوقت الذي ينبغي أن يبذل في أعمال البناء بعد الفتح سوف يضيع في مقاومة المفسدين الأثشار ، وهذا تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغفو مع جميع الأعداء بعد فتح مكة ، وبذلك أغلق أبواب الفساد والأعمال الانتقامية التخريبية . وليس ذلك فحسب ، بل إن معظم هؤلاء اعتنوا بالإسلام ، وأصبحوا مصدر قوة للدين ، ومن أمثلة ذلك عكرمة ابن أبي جهل (١) .

وعندما يستتب الفتح ويتحقق النصر يأتي دور إصلاح الشئون الاجتماعية ولم يتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الطفرة والصراع بل عالج الأمور بصبر وتأن .

لقد كانت قريش وريثة الدين الإبراهيمي ، ولكنها شوهت صورة الدين الإبراهيمي (الخنيفي) وابتعدت فيه بداعاً كثيرة ، منها ما ذكرناه سلفاً من أمر النبي ، أى تأخيرها لأشهر الحج عن شهر ذي الحجة عن انتفاض أحد عشر يوماً من كل عام قمرى .. إلى آخر ما أوردناه سلفاً . ومع ذلك لم يصلح الرسول خلل النسيء بمجرد فتح مكة ، بل صبر حتى استدار الزمان كهيته ، وصلح الخلل الزمني بتتابع الأيام ، فأعلن الرسول أن هذه هي أيام الحج الحقيقة وسيكون الحج مستقبلاً في هذه الأيام الصحيحة .

ومن هذه الأمثلة يتبيّن لنا كيف لازم رسول الله الحكمة الربانية وربط دولاته بدولات سنن الله ، ووافق منهج الله في جميع أعماله ،

(١) عبد الله بن سعد بن أبي السرح أحد فاتحى المغرب وأولهم ..

ولهذا أسفرت جهوده - عليه الصلاة والسلام - عن نتائج عظيمة غيرت
مجرى التاريخ .

إننا نستطيع تقسيم تاريخ الدين في التاريخ إلى عهدين كبارين :
الأول قبل بعثة النبي محمد في القرن الرابع الميلادي .. والثاني بعد بعثته .
وإن الكتب التي نزلت قبل بعثته ألقيت مسؤولية حفظها على الأقوام
التي أنزلت عليها هذه الكتب ، ولذلك وردت كلمة الاستحفاظ منسوبة إليهم
« بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (المائدة : ٤٤)
ولكن الله ضمن حفظ القرآن ونسب ذلك إليه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإننا
لهم حافظون » (الحجر ٩)

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يزِّم الشَّرِكَ وينشر التوحيد
ويحقق هيمنة الفكر التوحيدى في العالم : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ويكون
الدين كله لله » (الأنفال : ٣٩)

فكأن المعونة الإلهية تشرط لهذه العلل أن يخلق الله حالة مواطية على
نحو ما حدث خلال ألفين وخمسمائة سنة .

وقد استغل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرصيد التاريخي ،
فجعل الشرك مغلوباً منهزاً وجعل الفكر التوحيدى غالباً متتصراً .

وبفضل جهود رسول الله وأصحابه أصبح الشرك مغلوباً إلى الأبد ،
ولا أمل الآن - بعون الله - في النهوض به واستعلانه كفدر غالب -
غير أن التوحيد أيضاً فقد مكانه كفدر غالب في هذا العصر ، وحل محله
الفكر العلماني ، أي الفكر الذي لا علاقة له بوجود الله ، وتبرأ الفكر
التوحيدى المكان الخلفى .

إن العمل الحقيقي الذي لا يحيى عن الاستطلاع به هو محاولة درء الإلحاد ومحاربته ، ليتبواً التوحيد المكانة الائقة به من جديد .

لقد كان الله على علم بأن دوراً جديداً للإلحاد سوف يأتي مستقبلاً ، فتحركت معونته من جديد ، حيث أوجد الله في الألف سنة الماضية حالة تساعد على دعوة التوحيد من جديد ، ولئن بدا أن الإلحاد لا يزال غالباً ومسطراً على العقول المفكرة فإن الله قد خلق أحوالاً لو استغلت استغلالاً صحيحاً لعاد التوحيد إلى مكان القيادة من جديد .

لقد تحققت الغلبة للتوحيد في المرحلة الأولى باستعمال القوة كقوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » (البقرة : ١٩٣) « بل ننذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (الأنبياء : ١٨)

وفي المرحلة الثانية تتحقق هذا العمل بالبيان والتبليغ ، كما تشير إلى ذلك الآية القرآنية : « سررهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبنوا لهم أنه الحق . أو لم يكف برباك أنه على كل شيء شهيد » (فصلت : ٥٣)

الثورة الفكرية

وقد حدثت في هذا الزمان ثورة فكرية .. فما هي هذه الثورة ؟؟ .. وللإجابة على هذا السؤال نقول إنه يستعصي استعمال كلمة معبرة عن مدلول هذه الثورة لكننا نعبر عنها بكلمة « الثورة العلمية » .. وقد أسفرت هذه الثورة العلمية الحديثة ولأول مرة في التاريخ البشري عن تغيرات فكرية تلائم الدعوة إلى التوحيد : ولو استغلت هذه التغيرات لتحقيق بالجهاد القلمي واللسانى ذلك المقصد الذي اضطر المسلمين الأوائل في سبيله إلى استعمال السيف .

إن هذه الثورة العلمية الجديدة ليست إلا رافداً أو نتاجاً فرعياً للثورة الإسلامية القديمة ، فإن الله خلق بواسطة الثورة الإسلامية أسباباً أخذت تعمل من خلال التاريخ حتى وصل هذا العمل إلى إحداث ثورة نسمتها بالثورة العلمية الحديثة ، كما ذكرنا قبل ذلك .

وبفضل هذه الثورة أصبح ممكناً أن تكون الأشياء والمخالقات موضوعاً للبحث والتنقيب ، وقد بدأ هذا العمل بشكل أولى في العهد الأول عندما كشفت الشمس ذات يوم فقال البعض : لقد كشفت الشمس لموت إبراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم .. فقال الرسول : (إن الشمس والقمر آيات من آيات الله لا يكشفان لموت أحد ولا بحياته) .

وبذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنصر الأسطورة في العلم .
والغريب أن هذا التيار الفكرى وصل إلى أوروبا منفصلاً عن الدين وسبب ثورة علمية جديدة .. لكنها – نتيجة الموقف الكنسى من العلم – كانت ثورة ملحدة . ومع ذلك فقد كانت أكبر فائدة لهذه الثورة أنها أزالت عهد الأوهام والخرافات القائمة على الفروض والقياسات بدلاً من الحقائق (فمثلاً اعتقاد أن الشمس والقمر يكسفان لوفاة إنسان ... وهم) .

وقد كانت الخرافات أكبر عقبة في سبيل انتشار الإسلام ، فإن المؤمن بهذه الخرافات لا يستطيع أن يميز بين الإسلام وغير الإسلام ، بل يعتقد على أساس الفرض المسبق وبدون دليل أن أحدهما صحيح والآخر باطل .
فمثلاً يقف الإسلام كلين موثوق به تاريخياً ، ولكن جميع الأديان الأخرى لا تستند إلى قوة تاريخية ، ولكن الإنسان الذي عاش عهد الأوهام ، لا يولي هذه الحقيقة أي أهمية .. بينما وقف العهد الجديد موقف التأييد للحججة التاريخية ولاعتبار الصحة التاريخية ولذلك بُرِزَ إلى حيز الوجود

فن جديد يدعى (النقد الأعلى) «Higher Criticism» وبموجب هذا الفن الجديد برهنت هذه الحقيقة على أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي يحظى باعتبار تاريخي حيث تفقد الأديان الأخرى الاعتبارية التارikhية.

ولقد حاولت العقلية العلمية كشف الكون في ضوء التجربة والمشاهدة وبالتألي كشف القناع عن حقائق طبيعية تؤيد تعاليم الإسلام من منظور علمي، فمثلاً كشف العالم الحديث أن قانوناً واحداً للطبيعة يسيطر مفعوله على الكون كله ، وأن هذا القانون الذي تخضع له الأرض تخضع له سائر الأشياء في الكون ..

ويثبت لنا هذا أن خالق هذا الكون واحد ولا مجال لآلهين أو أكثر وقد ثبت أن الفلسفة القديمة كانت عقبة علمية أمام قبول دين التوحيد على امتداد التاريخ ، وكانت الفلسفة تتبعاً مكانة العلم الغالبة في قديم الزمان . وقد كانت تمثل الأرضية الفكرية لجميع المثقفين ، وعلى ذلك الأساس كان تفكيرهم ، فكانت الفلسفة عقبة في سبيل الاعتراف بمبدأ التوحيد .

كانت الفلسفة تستهدف منذ قديم الزمان البحث عن الحق ، ولكن الواقع أن الفلسفة رغم تاريخها الطويل الذى يمتد إلى خمسة آلاف سنة ، منيت بالفشل الذريع فى الوصول إلى الهدف المنشودى ، والسبب فى ذلك أن الفلسفة لم تستطع أن تومن بمحضودية الإنسان .. لقد حاولت ارتياح آفاق لا نهاية مع أن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ إلى آفاق لا نهاية ، من جراء محضوديته .

لقد حاولت الفلسفة ذلك قروناً طويلاً .. ولكن بدون جدوى ...

إن العقائد الأساسية التي يقوم عليها دين التوحيد ، حقائق معلومة ومشاهدة بطريقة أكمل للإنسان .. مع أنها « حقائق غيبية » وإن الإنسان بسبب قدرته المحدودة لا يستطيع أن يدرك تلك الحقائق . وإن أكبر عمل أداه العلم الحديث من الناحية الدينية هو أنه اقتلع هذه الفرضية من جذورها وبرهن على أن قدرة الإنسان محدودة ، وأنه لا يستطيع أن يدرك الحقيقة بكلاملها .

إن الأرض الفكرية التي خلقها الفلسفة القديمة أصبحت فكرة (دفاعية) وإن الأرض الفكرية التي عبر عليها العلم الحديث أصبحت فكرة (هجومية) في العالم العلمي .

إن هذه الثورة التي حدثت في العقول مهدت السبيل لدين التوحيد . وإن فكرة المحدودية تحظى ولو بطريقة غير مباشرة بتأييد علمي ، ولا مناص للإنسان من أن يعرف بما يخبره به الرسل لإدراك الحقيقة العليا ، وقد أصبحت مقوله أنه لا إيمان إلا بالمشاهدة ، مقوله مجردة من النظرية العلمية ، وينسحب هذا على القول بأننا لن نؤمن بالآخرة والوحى والإله ما لم نشاهدنا بأعيننا في وضيع النهار .. إن كل ذلك مخالف للعلم الحديث ، فإنه لأول مرة في التاريخ المعلوم حدث أن العالم الإنساني أثبت بنفسه أن (علم الإنسان محدود) وأنه سيظل (محدوداً) ، فإن الإنسان عندما يحاول فهم الكون فسينكشف له أن الكون أكثر تعقيداً من أن يحيط به عقاه .

إن الفهم العلمي مهم جداً من ناحية الفكرة الإسلامية لأن أهمية الرسالة ثبت بذلك ، فإن الإنسان من جهة يريد الوقوف على حقيقة الكون ، ولكنه من جهة أخرى لا يستطيع – ولن يستطيع – أن يدرك الحقيقة إلى آخر مداها بسبب محدوديته ... إن هذا الفراغ الموجود في الحياة الإنسانية يدل على أن الإنسان يحتاج إلى مرشد أعلى ، وبتعبير آخر :

إن هذا الاعتراف الذي أتبته العلم أكد ضرورة الرسل والرسالات
السماوية للإنسانية كلها ..

لقد كان الإنسان محروماً من حرية إبداء الرأي ، والسبب في ذلك
أن السلاطين والأباطرة قد أصبحوا موضع القداسة ... إن الرجال الذين
يصلون إلى مكان أعلى ، كان الناس يحسبونهم مقدسين ويحيطونهم بهالة
من القداسة والتجسيد ، وكان رأيهم هو المقدس ، وكان لهم حق أن يفرضوا
آراءهم ورغباتهم على الآخرين . ولكن ثورة التوحيد قضت على طغيان
الإنسان على أخيه الإنسان ، وأعلنت أنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقى
ومن هذا المنطلق ظهر تيار فكري اكتمل اكتهلاً سياسياً عندما وصل إلى
أوروبا ، فنشأت حركات تقول بأن الناس سواسية ، وتم الاعتراف بهذا
الحق الإنساني ، كما اعترف بحق الناس في التعبير عن أفكارهم بحرية .

ولأول مرة في التاريخ أصبح من الممكن لإنسان أن ينشر دين التوحيد
ولا يخاف من البطش والقبض(١) . ولقد كشف العلم الإنساني نعماً مادية
أودعها الله هذا الكون ، وكانت مختبئة عن نظر الإنسان ، ومن أهمها
(من ناحية الدعوة) وسائل المواصلات بما فيها من المطابع والإذاعات
الم رئيسية والسمعية ، والمواصلات الحديثة السريعة مثل القطارات والسيارات
والطائرات (والتلكس والهاتف) .. إن هذه المخترعات نعمة يمكن أن تخدم
الإسلام من حيث استعمال وسائل المواصلات والتقليل الحديثة لنشر الدعوة
الإسلامية على صعيد عالمي .

إن هذه الفرصة الفالية التي ظهرت خلال جهد دام ألف سنة في التاريخ
إنما هي فرصة للإسلام والمسلمين الآن ، فكما خلق الله أوضاعاً مواتية

(١) لعل هذا صحيح في دول العالم الحر وبعض الدول الأخرى
(المراجع) .

في الماضي لغبة الإسلام الأولى بعمل دام ألفين وخمسة سنت ، كذلك خلق الله في هذا العصر أوضاعاً مواتية بعمل دام ألف سنة تمهد لغبة الإسلام مرة ثانية ، غير أن هذه الأوضاع والأحوال لا تستطيع أن تتحول إلى واقع ملموس بدون جهد دموي ومحاولة مخلصة .. ولأجل تحويل هذا الإمكان إلى واقع ، لا بد من أن تظهر ثلاثة من الرجال الإيجابيين .. وإذا ظهر هؤلاء الرجال – فإن الإسلام سينال الغلبة الفكرية في المستقبل المنظور من جديد كما سبق له أن نال الغلبة الفكرية على الشرك في القرن الأول

إن هذه الإمكانيات التي ذكرناها آنفأً لتربّق جماعة تستغلها في تحقيق هيبة الإسلام فكريأً . ولكن لتعاسة الحظ لم تظهر حتى الآن أية جماعة تنقض بهذه المسئولة . وما لامرأء فيه أن القرن الماضي قد شاهد خروج جماعات وحركات لا تحصى ، ولكن هذه الحركات كلها ظهرت كرد فعل للأحوال الطارئة ، ولا سيما الأحوال السياسية .

إنها لم تظهر بداع الشعور الرباني الذي ظلل يتفاعل على مدى الألف سنة الماضية ، والذى بلغ مداه خلال القرن الرابع عشر المجرى .

لقد ورد في كتب السيرة أنه في موقعة بدر عندما جرت الملحمة بين أهل الكفر الأقوباء وأهل الإيمان الضعفاء ، خر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً على الأرض لف्रط العاطفة الإيمانية ، ودعا الله أن ينصره في هذه الآونة الحاسمة ، وقد سجل التاريخ كلمة ترددت على لسانه صلى الله عليه وسلم ، هي : (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تبعد بعدها في الأرض) .

لقد كانت هذه الكلمة تعبيراً عن الحقيقة دون مبالغة ، فمما لا شك فيه أن هذه الأرواح المؤمنة التي لا تتجاوز (٣١٣ نسمة) في بدر ،

لم تكن نموذجاً للعامة من النوع البشري ، بل كانت هذه العصابة هي الجماعة التي انتهت إليها مسيرة تاريخ بلغ ألفين وخمسة سنة ..

ولنا أن نقيس على ذلك أن هذا العصر يحتاج إلى عصابة جديدة ترث (من ناحية الشعور) تاريخ ألف سنة خلت .. ومن ناحية العمل والأخلاق تilmiş على تحويل هذه الإمكانيات إلى أرض الواقع ، ومن ناحية الجد والإخلاص تصل إلى درجة لا تزعمها أية زلة من مكانها .

عندئذ تكون قدر بطننا (دولابنا) بسنن الله وأصبحنا أهلاً لنصره وعونه

أصحاب الرسول . كيف كانوا؟

لقد ورد في القرآن قوله تعالى :

«فَلَمَنْ آمَنُوا بِعِنْدِنَا مَا آمَنُنَا بِهِ فَلَمَنْ اهْتَدُوا إِنْ تَوَلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شُقُّوقٍ»
(البقرة : ١٣٢)

يبين من هذه الآية أن أصحاب الرسول ليسوا إلا مسلمين يمثلون
نماذج حقيقة للحق .

إن الإيمان الذي ينال درجة الاعتبار عند الله هو الإيمان الذي يشبه
إيمان الصحابة ، وأى نوع من الدين والإيمان مختلف عما كان عليه الصحابة
لا براءة له من الله .

وفي هذا المقام الوجيز نسرد بعض سمات الصحابة وخصائصهم :

أولاً : لقد أحب الصحابة الدين أكثر من كل شيء :

لقد ذكر القرآن هذه الميزة من مزايا أصحاب الرسول فأخبر أن الدين
أصبح عندهم أحب وأثمن من كل شيء وأن الحب الشديد يعتبر درجة أعلى
وأسوى في العلاقات ، فإذا تعلق قلب الإنسان بشيء للدرجة الحب أصبحت
هذه العلاقة بدليلاً عن كل نقص أو حرمان ، وتحرك عقل الإنسان له ،
وأدرك كل أمر يحبه بدون إرشاد أو تعلم ، إنه يعمل من تلقاء نفسه
لمشيئة المحبوب ، ويعرف بنفسه ما لا ينبغي له أن يعمله دون أن يزود
بخارطة عمل .

إن أصحاب الرسول لم يكونوا أناساً غير عاديين ولم يكونوا مختلفات فوق الإنسان ، بل كانت خصيصتهم أنهم أحبوا الدين أكثر مما أحبوا أنفسهم إن الصحابي العادى في ذلك الزمان لم يكن يهمه بناء مستقبله ، ولكن كان يهمهمستقبل الدين ، وكما أن العادى يبذل ماله في أموره الذاتية ، كان الصحابة يبذلون أموالهم في سبيل الدين ، وبفضل هذه السمة العظيمة سجلهم التاريخ كجماعة أحلت الإسلام محل الانتصار الأسى والأعلى .

ثانياً : عرروا الرسول قبل شهادة التاريخ له :

وميزة أخرى تبعث على التأمل والدهشة .. لأنهم عرفوا رسولاً معاصرأ لهم وانضموا إليه .. وهذا الأمر من الصعوبة بمكان إلى درجة أنه لم يسبق نظير لهذا الواقع على مستوى الجماعة الكبيرة ، وقد شهدت الأزمنة القديمة في جميع أطوازها أن الناس استهزءوا برسليهم وكفروا بهم ، وقد جاء في « الكتاب المقدس » : (إنكم ازدرتم رسلي) . ومن كان هوؤلاء المزدرون؟ لأنهم كانوا يؤمنون بالوحى والرسالة ، وإنهم كانوا أصحاب تكايا وزوابايا باسم الأنبياء ، وكانوا يحتفلون احتفالات دينية كبيرة ، ولكن كل هذه النشاطات كانت باسم الأنبياء الأقدمين ، وأمام نبي الزمان فلم يكن نصيبيه منهم إلا الاستهزاء والازدراء .

لقد كفر اليهود باليسوع عليه السلام رغم إيمانهم بموسى عليه السلام ، وكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم كانوا يحيطون باليسوع بالتجلة إلى درجة العبادة ، وكذلك رمت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجارة وأخرجته من مكة مع أنهم كانوا يفتخرن بأنهم ورثة لابراهيم .

والسبب في ذلك كله هو أن نبوة الأنبياء الأقدمين تغلو نبوة ثابتة تكونها مصحوبة بوقائع التاريخ الطويل ، حتى لا تكاد تنفك عن الترااث

القومى لقوم أو جماعة . فإن النبي الذى يبعث فى قوم يكون بطلًا من الأبطال للأجيال القادمة . فيكون الإيمان به مرادفًا للاعتزاد بالتراث القومى فمن ذا الذى لا يؤمن بذلك النبي ؟ .. ولكن نبوة نبى الوقت تكون مثارًا للجدل والنزاع وتكون سبائر الالتباس مسدولة عليه ، ويضطر الإنسان للإيمان به إذا نظر إلى الحقيقة من وراء الستار : ولا يؤمن به إلا ذلك الشخص الذى دفن أثانيته ، ويكون بذلك الأموال فى سبيله بذلا فى سبيل أمل لم تتحقق مصداقته التاريخية .

ولكن هؤلاء الصحابة الكرام كانوا أناساً آمنوا برسولهم المعاصر ، كما يؤمن الناس بالرسل الأقدمين .

ففي غزوة الخندق وقد اشتد الحصار ولم تتوافر المطالب الأساسية قال واحد من المسلمين من شدة المعاناة : « كان محمد بعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط » (سيرة ابن هشام ، الجزء الثاني ، ص ١٤٤) . وكان وعد الرسول في وقت غزوة الخندق (عندما قال هذا الرجل قوله) وعدًا لا يتجاوز الكلمة ، ولكن الوعد أصبح الآن وعدًا منجزًا متحققاً ، لقد آمن الصحابة بهذا الوعيد قبل أن يتم تتحقق وآمنوا بالرسول قبل أن يؤكد التاريخ صدق وعده ، ولكننا نؤمن بهذا الرسول بعد أن صدقه التاريخ .. والبون واسع بين الإيمانين ، وبختلف كل واحد منها عن الآخر اختلافاً لا نهاية له ، أما في هذا العصر فليس المسلم وحده ، بل إن الكافر المنصف لا يسعه إلا أن يعترف بأن محمداً كان أكبر شخصية على امتداد التاريخ ، ولكن هذا الاعتراف في حياته صلى الله عليه وسلم كان من أصعب الأمور ، ومن اعتربوا به كانوا من عجائب الناس ، وقد حالفهم التوفيق .

ثالثاً : آمنوا بالقرآن في عهد الصراع :

ذكرت كتب السيرة أن أصحاب الرسول كانوا يأخذون ما تم نزوله من القرآن ويأتون به الناس ويثنون عليهم الآيات .. وكانت هذه هي طريقة الدعوة التي اتبعها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس أمراً يبعث على الإعجاب عند الإنسان المعاصر .. ولكن إذا رأيته من منظور العهد الماضي فستندهش وتستيقن أن هذا أمر لم يسبق ولم يعقبه نظير في التاريخ على مستوى الحماعة .

إننا عندما ننطق بكلمة « القرآن » الآن ونعني به كتاباً سجل التاريخ إعجازه على مدار القرون الأربع عشر . ويؤمن به مئات الملايين من الناس فإن الانتهاء إلى هذا الكتاب أصبح الآن أمراً يبعث على الفخر والاعتزاز ، ولكن القرآن لم يحتل هذا المكان من الاحترام في بداية نزوله ، وكان ثمة أشخاص يتقولون أن حمداً ألف هذا الكتاب بلحمة الحكايات والقصص وسدادها ، وبإمكاننا أيضاً أن نفعل ذلك « لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » (الأنفال ٣١) وكان ثمة أشخاص يقولون أن حمداً يملك بعض الأحاديث ويردها صباحاً ومساءً « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي على عليه بكرة وأصيلاً » (الفرقان ٥)

فإن معرفة القرآن وقت نزوله إنما هي إطلاقة على المستقبل في زمان الحال وإنما هي اعتراف بحقيقة قبل أن تثبت للجميع ، وفي هذه المرحلة كان من الصعب جداً أن يقدم هذا الكتاب ككتاب دعوة لأن ذلك يقتضي التفاني في عظمة الله والاعتراف بشخصية الرسول وإنكار الذات .. إنه الاعتراف بشخصية لم تلمع بعد في أفق التاريخ .

عندما أسلم ليد الشاعر العربي الشهير تخلى عن الشعر ، ولما سُئل لماذا عزفت عن الشعر ؟ .. أجاب : « أبعد القرآن ؟؟ .. فقى وقتنا هذا

عندما يترك شخص قرض الشعر ويقول هذه الكلمة فإنه يحظى بدرجة من السمعة والشعبية ، ولكن شتان بين هذا القول في هذا الزمان ؛ وبين القول الذي قاله (لبيد) وقت نزول القرآن .

إن هذه هي الحقيقة التي تعرض لها القرآن في هذه الآية :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » (الحديد ١٠)

رابعاً : أنفقوا أموالهم في سبيل دين لم يظهر دوره بعد :

روى ابن أبي حاتم قصة صحابي في الكلمات الآتية :

« عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية « من ذا الذي يفرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » (الحديد ١١) قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله : إن الله ليزيد منا المفرض ؟ قال : نعم يا أبو الدحداح . قال : أرنى بذلك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، فقال : إني قد أفترضت رب حائطى ولو حائط فيه سبعة نخالة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداهما : يا أم الدحداح .. قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أفترضته ربى عز وجل . فقالت له : ربع يعلث يا أبو الدحداح . ونقلت منه متابعاها وصبيانها ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كم من علق رواح في الجنة لأبي الدحداح » .
(تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ٤٤٨) .

هذه قضية نموذجية تدلنا على أن الصحابة كانوا فرحين بتقديم التضحيات في سبيل دين آمنوا به ، ولنستعد إلى الذاكرة أن هذا الحدث كان قبل أربعة عشر قرناً ، وليس من الغريب أن أنفق شخص مثل هذا الإنفاق في هذا الزمان ، فإنه ينال من الاحترام والتقدير بحيث يعود عليه إنفاقه

بمثل الذى أنفقه أو أكثر ، ولكن الأمر كان مختلفاً في زمان الصحابة ، فإن بذلك الأموال في سبيل الدين في ذلك الوقت كان مما يثير الناس عليه ويستعد لهم ضده فيلقبونه بالمخنون ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك لأنهم دفنا ذواتهم تحت حجارة أساس هذا الدين ، وإن تأثير هذا الدين الناشيء الغريب كان مغامرة ، لأن صدقه كان أمراً مشتبهاً فيه ، فإن التاريخ الراهن لهذا الدين لم يكن قد ظهر إلى الوجود بعد .

خامساً : آثاره على أنفسهم حتى في السيادة

كان عبد الله بن أبي شيخ المنافقين من دهاء العرب ويتمنى بنفوذ كبير في المدينة ولما أراد أهل المدينة حسم جميع خلافتهم ودعم وحدتهم ، انتخروا عبد الله بن أبي ليجعواه ملكاً عليهم وبابسوه تاجاً رمزاً لا يُعتراف به ملكاً ، وكما يقول ابن هشام : « فأما عبد الله بن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكونه عليهم » (سيرة ابن هشام الجزء الثاني ص ٣٦)

ولم يكدر ينتهي عمل التتويج حتى وصل الإسلام إلى المدينة وشهد أهل المدينة بصدق هذا الدين ، وجاء الإسلام خلال الديار ، ثم وصل وفد من أهل المدينة إلى مكة واستمع إلى الرسول واستشعر أعضاء الوفد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يمثل أحسن شخصية لإدارة الحياة الاجتماعية بالمدينة ، فعرضوا عليه نيابة عن جميع أهالي المدينة السيادة على المدينة .. هذا الواقع الذي سجله التاريخ بعنوان « بيعة العقبة الثانية » .

لم يكن ذلك الواقع حدثاً هيناً بل إنه يرافق وضع الإنسان (تاج نفسه وعرشه) على رأس شخص آخر غريب عنه . ويندر نظير هذا الواقع في الحياة القبلية القديمة .

إن انتخاب سيد وزعيم من خارج القبيلة ، والقوم لا يزلون يعتبرون ذلك من الصعوبة بمكان ، كان أصعب بكثير في قديم الزمان منه في عصرنا فإن هذا الواقع عندما حدث لم يكن محمد مخاطباً بهالات التمجيد والإجلال بل كان محمد آنذاك شخصاً آخرجه قومه من وطنه ، ولم يقترب به مجد الآماد والعصور ، وكان شخصاً أثير حوله الجدل والتزاع ، كان مسلوب البيت والتابع ، فكان الانصواؤ إليه يعني الحرمان من كل شيء والحصول على خصومة القوم وعداوتهم . لقد أصبح من الميسور في القرن العشرين لأى « برنارد شو » أن يعرض قيادة أوروبا على محمد رسول الإسلام ، ولكن كان من العسير تماماً في القرن السادس الميلادي الاعتراف برسالته وقبوله كلاماً وأمير وزعيم .

سادساً : عرّفوا حدودهم :

كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يشاور أصحابه في دقيق الأمور وجليلها ، فكلما جد أمر يجمع أصحابه ويقول : أشيروا على أيها الناس . ومع أن هذه مشورة صريحة ، لكن الناس كانوا يظلون صامتين حتى يقوم أبو بكر وبيدي رأيه في موجز من القول ثم يجلس ثم يقوم عمر ويعرب عن رأيه ، ثم يجلس .. ولا يتكلم إلا عدد قليل من الناس فيما القرار بإجماع الآراء ، وجرت هذه العادة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجمع أبو بكر الناس ويستشيرهم فييخيم الصمت حتى يقول عمر شيئاً فيقول بعض الصحابة من أراد منهم أن يقول ومن ثم يتقرر الأمر بالإجماع ، وبعد عمر رضي الله عنه تزايد المسلمين من غير الصحابة وتغيرت العادة ..

إن هذه العادة عادة بسيطة في الظاهر ، ولكن لا يوجد مجتمع في

التاريخ نهج هذا النهج ولا يمكن العمل وفقـ هذا النهج إلا إذا أصبح المجتمع مدركاً لحدوده ، ويعرف فيه الرجل بكمال غيره وعجز نفسه ، ويرى نفسه بنظرة واقعية أنه محدود للغاية .

أضف إلى ذلك أن أباً بكر وعمر لم يكونا الشخصين اللذين عرفناهما في التاريخ الآن ، إنما كان آنذاك معاصرين للمسلمين .. بكل طبيعة المعاصرة ومع ذلك فجيل الصحابة وحده هو الذي استطاع تجاوز هذا الحاجب . الصعب حجاب المعاصرة ، وقد سجل أصحاب الرسول هؤلاء أنهم الذين سجلوا هذا التفرد الذي لا قياس له في التاريخ .

سابعاً : تساموا عن الحقد والبغض :

في غزوة ذات السلاسل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى كتيبة تحت قيادة عمرو بن العاص . ويقع هذا المكان في ضواحي الشام ، فلما قدم عمرو بن العاص يستفسر عن أحوال العدو ظهر له أن كتيبته الصغيرة لا تكفي لجيش العدو الكبير ، فأرسل شخصاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره أن الجنود المسلمين قليلون وهم في ميسى الحاجة إلى مدد عسكري فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتيبة أخرى مولفة من مائة شخص وعلى رأسها أبو عبيدة بن الجراح .

ولما التقى الكتيبتان وانضمما في كتيبة واحدة أثير الخلاف حول من يكون الأمير ، فقال عمرو بن العاص : إن الكتيبة الأخرى أنت لنجدية الكتيبة الأولى فأنما الذي أكون أميراً للجيش المؤلف من الكتيبتين ، وخالفه أبو عبيدة بن الجراح ورأى أنه يستحق الإمارة للجيش وإلا فيمكن أن يكون هناك أميران : أمير لكتيبة الأولى وأمير لكتيبة الثانية .. ولما اشتد الخلاف قال أبو عبيدة بن الجراح « تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوع ولا تختلف وإنك والله إن عصيتنى لاطعتك » (رواه البهقى وابن عساكر) (سيرة ابن كثير ، ص ٢٩٩) .

وكان خالد بن الوليد شجاعاً بأسلا يتمتع بموهبة عسكرية نادرة ، قاد الأفواج الإسلامية الظافرة منذ زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلافة أبي بكر ، ولكن عمر كان يكره بعض عاداته ، فأشار على أبي بكر أن يعزله من الإمارة ، فلم يصح إلية أبو بكر ، ولكنه بلغ من إصراره إلى حد أنه لما استخلف عزل خالد بن الوليد من منصبه وجعله جندياً عادياً .

وكان خالد بن الوليد عندئذ يجاهد في المعمعة ، خلال فتح الشام ، فسلسه أبو عبيدة بن الجراح رسالة من عمر بن الخطاب يأمره بالتخلي عن القيادة ، ثم اجتمع عدد من رجال الجيش في خيمة قائهم خالد ابن الوليد واستحثوه على عدم الإطاعة ، فأجابهم خالد بن الوليد : (إني لا أقاتل في سبيل عمر ولكن أقاتل في سبيل رب عمر) إنه كان يقاتل من حيث كونه قائداً للجيش وسيقاتل من الآن كجندي عادي .

ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه الشخصية إلا إذا تسامى عن المقت والتدمر والحدق ، وعاش في الله لا في مطامع البشرية الحقرة .

ثامناً : نصروا الدين أكثر مما بايعوا عليه :

لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان (٢ هجرية) أن جيشاً مؤلفاً من ألف جندي مقاتل يتجه نحو المدينة ، ويقوده أعلام قريش ، ويتألف هذا الجيش من سبائقة جندي مدرع ومائة فارس ،

جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار في المدينة ، واستشارهم في الخطة التي يمكن اتخاذها ، فقام بعض الأشخاص من المهاجرين حسب المعتاد وقالوا : يا رسول الله امض لما أمرك الله .. فوالله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون .

ولكن رغم هذه الكلمات التي أدلّ بها رجالات المهاجرين طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي الأنصار ، بقوله : (أشيروا على أيها الناس) . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله كأنك تشير إلى ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . فقال سعد بن معاذ : فامض بنا لما أمرك الله إنا لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه معك وما نختلف منا رجل واحد .. وسوف ترى مما ما تقر به عينك .

وقد تقرر بعد هذا الحديث الخروج من المدينة لمناهضة الكفار ، والسبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله الأنصار أكثر من مرة أشيروا على أيها الناس (موجهاً إلى الأنصار) يرجع إلى ما رواه ابن هشام في قوله : « وذلك أئمهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى نصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا ترى الأنصار عليها نصرة إلا إذا دهمهم العدو بالمدينة ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بعيد عن بلادهم » (سيرة ابن هشام الجزء الثاني ، ص ٢٥٣) . فلم يكن الأنصار متزمنين وحسب بما بايعوا عليه ، بل خرجوا ٨٠ ميلاً بعيداً عن المدينة ، وهكذا فلم يعتذر الأنصار وأوفوا أكثر مما بايعوا ، وضحوا بأموالهم وأرواحهم في موقعة بدر الخالدة . (م ١١ - قضية البعث)

تاسعاً : التركيز على الهدف والابتعاد عن الاختلاف :

« أخرج الطبراني عن المسور بن مخرمة قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه فقال : إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عنى ، رحمسكم الله . ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم فإنه دعاهم إلى مثل ما أدعوكم إليه ، فاما من بعد مكانه فكرهه ، فشكى عيسى بن مريم ذلك إلى الله عز وجل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن يا رسول الله نؤدي إليك فابعثنا حيث شئت » .

إن الاختلاف دائماً يعوق سبيل العمل الاجتماعي ، ولكن خشية الله ملأت قلوب الصحابة ، حتى نسوا وتناسوا الخلافات ، ووقفوا أنفسهم على أداء واجبهم ، ونشروا رسالة الإسلام في البلاد العربية وفي خارجها ، كما أمرهم رسول الله ، وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعكفوا على إحراء المال والمنصب ، بل انتشروا في مختلف الأصقاع فكان كل بيت صحابي يمثل (مدرسة صغيرة) حيث كان يعلم الناس لغة القرآن ويشرح كتاب الله وسنة رسوله . وفي الوقت ذاته كانت جماعة من المسلمين قد انصرفت إلى الفتوحات والإدارة السياسية ، ولكن معظم الصحابة انصرف عن الشئون السياسية إلى نشر الدين ، واستغلال الجبو الناجم عن الفتوحات الإسلامية ، وبفضل جهود هؤلاء الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين إلى أكثر من خمسين سنة خرج إلى الوجود ما نسميه الآن « العالم العربي » حيث لم يغير الناس دينهم فحسب بل غيروا لغتهم وثقافتهم وحضارتهم .

عاشرأً : اقتنعوا بالحلو من مقعد خلفي :

وعندما توف رسول الله صلى الله عليه وسلم أثيرت أول ما أثيرت مسألة الخلافة ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وكان سعد بن عبادة

من أبرز سادة الأنصار ، فرأى بعض الأنصار أن يحكم عليهم سعد بن عبادة ولما علم المهاجرون أسرع رجلهم إلى ذلك المكان ، وخطب أبو بكر رضي الله عنه بهذه المناسبة فقال :

« أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش .. هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (عمر أو عبيدة بن الجراح) فبايعوا أيهما شئتم » (سيرة ابن هشام ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٩) .

ثم قام عمر وبایع فوراً أبي بكر بيعة الخلافة ثم بايع الباقون من المهاجرين ثم بايع الأنصار على يد أبي بكر ، وكان الأمر شاقاً على فتاة من الأنصار إلى حد أن قال أحد منهم للمهاجرين : « قتلتم سعد بن عبادة » .

كان الأنصار أولئك الذين نذروا أنفسهم للإسلام وقدموا تضحيات لا تقدر ولا تخصى ، وحموا قافلة الإسلام حينما أخرجت من ديارها ، ولكنهم رضوا بأن لا يكون لهم نصيب في السلطة والحكم .. ورضوا بأن ينتخب الخليفة من المهاجرين فقط ، ولا شك أن ذلك هو سداد الرأي والحكمة ، لأن قريشاً تولت في يدها سيادة العرب طيلة القرون العديدة ، ولو كانت السلطة قد فوضت والحالة هذه إلى غير قريش لاختل النظام ، وأصبح من المستحيل القبض على دفة الحكم ، فكان هذا من رفعة الأنصار وواقعهم ، حيث أدركوا هذه الحقيقة واقتنعوا بالتخلي عن الحكم والسيادة ولكن هذا النوع النادر من الواقعية يندر نظيره في تاريخ العالم .

أحد عشر : أعطوا الأمور قدرها وحقها :

كانت غزوة أحد من أشد الغزوات ضراوة حيث وثب شباب قريش بغيظهم على المجتمع الإسلامي الحديث الناشيء وثوب الليث المصوّر على

فريسته ، فكانت اللعاء مسفوكة في شاحة الحرب ، وفي الوقت ذاته أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه وتساءل : من ذا الذي يأخذ هذا السيف بحقه ؟ .. فأقبل عليه بعض الناس ولكنهم لم يمنع أحداً سيفه ، ثم أقبل أبو دجانة وسأل : يا رسول الله ما حق هذا السيف ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » فقال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه . ومشى أبو دجانة بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم مشية متفاخر طرب على هذه الثقة التي نالها من رسول الله ، فلما رأه رسول الله قال : « إنها مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الوطن » .

وقد شد أبو دجانة على رأسه قماشاً أحمر ، دليلاً على أنه لا يبالي الموت وقاتل بشجاعة بالغة ، فلم يواجهه شخص إلا ولقي مصرعه ، وبعد ذلك وقع أمر يحكيه أبو دجانة فيقول :

« رأيت إنساناً يحمل الناس حمشاً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولو ل ، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة » (سيرة ابن هشام الجزء الثالث ، ص ١٤) .

ويروى صحابي آخر ذلك فيقول : إن رأيت أبو دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها » وكان من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن jihad أن لا تقتل امرأة(١) ولا يقتل الصبيان ولا الضعفاء . ولم ينس أبو دجانة هذا التعليم حتى في غمار الحرب ، وأمسك بسيفه بعد أن أطلقه .

ويتبين من هذا الأمر كم كان أصحاب الرسول يمسكون عنان عواطفهم

(١) إلا أن تكون مخازبة أو مساعدة على عمل حربي مباشر (المراجع)

وإن جميع عواطفهم كانت تمار من بمنطق الشعور بالمسؤولية لا بمنطق العواطف وكان باستطاعتهم أن يلترموا الهدوء والتحكم في النفس ، حتى في وجه الاستفزاز وإلهاب العواطف .. وكان بإمكانهم أن يدلوا رأيهم ولو وصلوا إلى منتهى الغضب ولا مراء في أن هذا الأمر ميسور قوله ولكنه من أشد الأمور عملا ، ولا يوفق إليه إلا من خشي الله واستحضر مراقبة الله له ..

الثني عشر : ارتفوا ارتفاع الشجرة :

لقد ورد في القرآن مثلان من الإنجيل والتوراة ، فمثل التوراة يختص بميزات الصحابة الذاتية ، ومثل الإنجيل بين ميزاتهم الاجتماعية .

يقول القرآن في وصف الصحابة :

« ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليفيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا » (الفتح – الآية الأخيرة) .

وقد ورد في الإنجيل هذا المثل في هذه الكلمات : وقال إن ملوكوت الله كشخص بذر بنوره في الأرض ، وينام في الليل ويظل يقطأ في النهار وينمو البذر وهو لا يعلم أن نبات الأرض ينبع تلقائيا .. الورق ثم السنبلة ثم الحبة في السنبلة .. وفي حين نضجت الحبة يسرع المزارع ليحصد بالمنجل فقد أصبحت المحاصيل جاهزة . (مرقص : ٣٢ - ٣٦)

فأخبر القرآن والإنجيل أن الارتفاع الاجتماعي لأصحاب الرسول يكون مثل الشجرة تكون البداية من البذر ثم ينمو البذر حتى يستوى على سوقه فيتحول إلى شجر غض مزدهر تدريجياً يعجب به الزارع ويغيظ بهم الكفار . لقد كتب الله أن يتطور الإسلام تطور الشجر ، وقد تحقق هذا المشروع على يد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يكن ذلك أمرًا سهلا

بل كان يقتضى الصبر والجلد والمثابرة ، ويقتضى أن لا يكون العمل بداعف من العواطف المثيرة الفورية ، ويقتضى أن لا يتبعوا أهراهم ، بل يتبعوا قوانين الطبيعة ، ويقتضي الأمر أن يدوسوا أطماعهم ، ويدفنوا عواطفهم .

إن أصحاب الرسول كانوا أنموذجاً لهذا العقل الرفيع ، فإنهم أسلموا أنفسهم إلى الخطة الإلهية دون تحفظ .. وننج عن ذلك أن الدين الإلهي قد استوى في هذه الدنيا على عوده ، وقامت قائمته ، وأصبح حديقة دائمة نصرة وارفة الظلال ، للدرجة أنه لا يمكن الآن هدم هذا الدين ولو حاولت الدنيا كلها ذلك .

مشروع البعث الإسلامي

إن هناك أناساً كثرين ي يريدون أن يروا مهمة إحياء الإسلام في صورة مشروع أو خطة ، وهم لا يستطيعون أن يفهموا إمكانية النهضة بدون مشروع أو خطة واضحة القسمات واللامتح .. وهذه نظرية خاطئة ، وحط من شأن حركة إحياء الإسلام ، وما من مشروع إلا وكانت تفاصيله عملاً ما ، بينما حياة الإنسان أوسع من أن تنحصر في رسوم وشكليات .

والحقيقة أن أكبر مشروع إنما هو إعداد الأفراد لتصميم المشاريع والخطط ، وليس منع مشاريع جاهزة في أيديهم .. وهذا هو العمل الذي تقوم به الدعوة الإسلامية ، فإن الدعوة الإسلامية الحقيقة تكون الصحوة الفكرية ، والصحوة الفكرية تكون أشخاصاً يقومون بالتصميم والتخطيط .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد الحالص ، ولم يعط الناس شيئاً مما نسبوه خطة أو مشروع ، غير أن الشخص الذي كان يتأثر بدعوته كان يجد خطة لعمله ، فكان يبدأ بالعمل داعياً إلى التوحيد

وال المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يزودوا بخطة أو مشروع ، ولكنهم مثلوا الإسلام تمثيلاً صحيحاً ، وبذلك البثيل الصحيح دخل الإسلام مرحلة الدعوة العالمية .

وال المسلمين الذين ذهبوا إلى المدينة قبل الهجرة لم يعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من (الخطبة) (١) إلا بعض سور من القرآن ،

(١) لا اعتقاد أن المؤلف يسعى إلى التقليل من شأن التخطيط في الأمور التي تحتاج لخطيط ، ولقد سأله الرسول معاذًا عن خطته إذا عرض له قضايا في اليمن .. لكن المهم هو العمل والخلاص في أي موقع يحتله المسلم (المراجع) .

ولكنهم قاموا بعمل الدعوة والتعریف بالإسلام حتى أصبحت المدينة دار الهجرة ومركزًا للإسلام ، فإن إخراج الناس من الدين التقليدي وإدخالهم في الدين الحى هي أكبر مهمة .. هذه المهمة تصنع الرجال الأكفاء الذين يجسدون المشاريع .

إن هذه المهمة تهز كيان الإنسان هرًّا .. إنها توقيظ فطرة الإنسان فيتفجر فيها ينبوع الحكمة الربانية ، فيتكون أناس ربانيون يتحرّكون في التاريخ وكأنهم ينظرون بنور الله ، فيصبحون مهيمين غير ممتنعين ، أذكياء وأصحاب فراسة كائني ذكرت في الحديث النبوي : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ..

إن ذلك الإنسان المؤمن هو أقوى إنسان على وجه الأرض وعنده الجواب على كل سؤال .. إنه يبحث عن أنجح منهج لعمله ، وهذه هي السمة البارزة التي أوجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فلم يكونوا في حاجة إلى أي شيء آخر .

والواقع أن الله قد أعطى لطبيعة الإنسان كل ما تحتاج إليه في الحياة ، وفي أكثر الأحوال تراكم عليها الأتربة وتحجبها الأقنعة .. وإن كشف هذا القناع عن طبيعة الإنسان إنما هو هدف الدعوة الإسلامية ، وعندما ينكشف القناع تتبّدّل الظلمة ، وتتحول طبيعة الإنسان إلى إشراقة كونية تتألق بها الأرض والسموات ، فتعتدّى يرى الإنسان كل شيء في شكله الحقيقي ، وإن الإنسان الذي يرى الأشياء كما هي يتيسّر له إعداد المشروع كما يتيسّر للشخص البصر أن يصعد بمصعد أو على دراج سلم إلى طوابق الأبنية الشاهقة .

وسأحكى هنا قصة توضح هذه القضية أحسن توضيح ..

كانت سيدة هندية تسكن مع زوجها في طرابلس ، وكانت لا تعرف العربية ، وهي ربة منزل وليس لها علاقة بالخارج ، وذات ليلة أصيب زوجها بآلم شديد في بطنه ، ولم يكن هناك أحد يأتي بالطبيب إليها ، ولم يكن في بيتها « هاتف » يوصلها بطبيب في المستشفى .. ولكن الحب الشديد الذي كانت تكه في حنابها صدرها لزوجها أصبح عوضاً لكل نقص وخرجت من البيت في غسق الليل لا يعوقها (عائق) عدم معرفتها العربية ولا جهلها بالطرق ، ولا عدم الوقوف على عنوان طبيب .. بل خرجت تهديها حرقة اللوعة والاضطراب ، ومررت بمسافات حتى وصلت إلى منزل طبيب باكستانى .. فجاء الطبيب وكشف على المريض وعلم أن هذا التهاب الزائدة النودية وأن الجراحة ضرورية حالاً ، فأخذ المريض في سيارته إلى المستشفى ، وبعد عملية جراحية بأيام شفى الزوج من مرضه وعاد إلى بيته .

وأكثر من أمثال هذه الحوادث تتعرض كل إنسان في حياته ... إنه يجد نفسه في وضع لم تسبقها خطة عمل ، ولكنه يقاوم هذا الوضع حتى ينجح .

على أن مثل هذه الأحداث تتعرض الإنسان في الشؤون العائلية المذاتية ولو خالط أحشاء الإنسان نفس الدرجة من الحب واللوعة لدinya حللت كثير من الأمور الدينية ، كما يتم حل الشؤون العائلية للإنسان يفضل هذا الحب العميق المتأصل . وبهذا الحب يعرف كل إنسان - بعد ذلك - مقتضيات الدين ومتطلباته ، ويقدم في سبيله ماله وأهله .

وبالتالي يعرف طريقه كما عرفت السيدة المذكورة طريقها .

تساؤلات الناس والإجابة عليها :

إن الناس يتساءلون : « ما المشروع الذي لديكم .. ؟ ».
وأسئلة .. كيف أخبرهم أن الضرورة لا تقتضي مشروعًا ، بل يحتاج
الأمر إلى « قافلة مؤمنة » ... فقط .

إننا نريد أن لا يحدث حدث إلا ويسعى له أفراد من المؤمنين ،
ولا يحدث برنامج ولا مشروع في الحياة الاجتماعية له تأثير ، إلا ويوجد
فيه أولئك الرجال الذين يحسدون كل مشروع وبرنامج ، ويفجرون خطة
و عملا وإرادة وسعيًا ، ولا يتحركون مثل تحرك الدي وفق مشروع وخطة .

ذات يوم صلى الإمبراطور « أورنچ زيب عالمكير » بالناس ، ولما رفع
يديه بعد الصلاة ذرفت عيناه دمعاً ، وكان « سعد الله خان » قائماً وراءه .
وعندما فرغ « أورنچ زيب » من الدعاء سأله « سعد الله خان » قائلاً :
يا صاحب الجلاله .. إن راية (إمبراطوريتك) ترفرف من (كاشمير)
إلى (راسكماري) فهل ثمة أمل عالق بقلبك بعد هذا ؟ ... فسكت
« أورنچ زيب » قليلاً ، ثم قال : يا سعد الله .. أنا في حاجة إلى الرجال .

كان لا ينقص « أورنچ زيب » مشروع ولا خطة ، وكانت لا تقصه
وسائل أو ثروة أو قوة ، ولكنه فشل في دعم (السلطة) المغلوبية لأنها
كان يقصها رجال ، ولو كان عنده جماعة من الرجال الخالصين الجادين .
لكان التاريخ مختلفاً لمن ينظره في زمن لاحق .

إن (قضية البعث الإسلامي) تبحث عن رجل إنسان في زحمة الأنسى .

وهي تبحث عن إنسانكم فمه خوف الله بين الناس الصائجين الناطقين
باسم الله ..

وتبث عن الدين يجرون وراء الدنيا - عباداً لها - عن إنسان أقدته الآخرة ..

وتبث بين من يتجرون .. عن إنسان اضطر إلى البكاء من خشية الله .

وتبث عن إنسان بين رافع ريات (الأنانية) دخلت في قلبه بشاشة الإيمان ووجد الله ، حتى لم تبق عنده إلا روح خالية من الأنانية ..

وتبث عن إنسان بين المتحاربين باسم الدين تخلى عن التحرب والصراع

وتبث عن إنسان بين رافع لافتة (حاسبو غيركم) اتخذ شعاره

(حاسبو أنفسكم) ..

هؤلاء (الأناسي) ينتظرون الإسلام .. وهو لهم الذين سيتحققون للإسلام الهيئة الفكرية ، وسيقودون (قضية البعث الإسلامي) محققوه (المنهج والشروط) ..

إن الإسلام يحتاج اليوم إلى جماعة من الأفراد يخلصون إلى حد تمكنهم من رؤية الحقائق عبر الظواهر .

ولى نخبة من الرجال الذين يركزون - بصبر - جهودهم على هدف ويتكون ما لا يعنفهم ..

وهو يحتاج إلى جماعة تحترم الدنيا وتؤثر الآخرة إلى حد يسهل لهم كل تضحية ، ويبلغون في الواقعية درجة تمكنهم أن ينظروا إلى محاسن غيرهم ويتوتروا على أنفسهم في الحكم والإدارة .

إن الإسلام يحتاج الآن إلى رجال ينظرون إلى الحقائق حتى لا تحيط بهم مسألة لفظية عن الحقيقة ولا تشوههم شائبة العواطف ، حتى لا ينحرفوا عن الحق بسبب التزاع أو الشجار ، تحرك قلوبهم حسداً لرقي شخص آخر يحبون الحقيقة أكثر من الظاهر ، وينظرون إلى المستقبل أكثر من الحال .

وخلاصة القول .. أنهم يعيشون في الآخرة أكثر مما يعيشون في هذه الدنيا ، يخالفون مقام الله .. هؤلاء هم قوام الإسلام في عهده الأول وسيكونون لبنت الإسلام في عهده الثاني .

والواقع أن مسألة المشروع إنما هي مسألة إعداد وتربيه للأفراد ، فإن الأفراد لا يخرجون من مصنع ، ولا يتكونون في شعب من الشعب الخارجيه ، والطريق الوحيد لإعداد الأفراد هو إثارة حركة خالصة على أساس الذين القيم تمس فطرة الإنسان ، وتنوّقه من منامه بالضرب على الوتر الحساس ، وتزوج في فكر الإنسان صبغة الله كي يصبح كيان الإنسان بها .

ومثل هذه الحركة لا تخرج برد فعل الحال من الأخوال ، إنها ترافق معنى إيقاع نعم الله على أوتار الفطرة ، وإنها تشرح حكمة القرآن في لسان عصره .. وإنها تدعوا إلى ما دعا إليه الرسل .. وهي تظهر كأدلة اتصال بين العبد وربه ، وهي تمثل (الحسن الإبداعي الإلهي) .. مثل ضوء الشمس .. وعبر الأزهار .. وإن آثار حركة كهذه لكتفيلة أن تخرج في المجتمع رجالاً ربانيين يضمون بين جوانحهم كل خطة وبرنامـج إن تاريخ الأنبياء ليدلـنا على أنه بالرغم من هذه الدعوة فإن الحركة لا يفيد منها إلا رجال يتميزون بخصوصية الفطرة ، وصلاحية النبو .. أما الأرض الصحراوية الفاحلة فستظل قاحلة بعد هطول الأمطار أيضاً مثلما كانت قبل ذلك .

«والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا»
(الأعراف : ٥٨)

المهمة المطلوبة

بما أن الإسلام آخر دين ، فإن له الخلود والبقاء والدوم .
لذلك كان الحفاظ عليه - أيضاً - شيئاً ضرورياً ومطلوباً ..

ومن لا شك فيه أن بعض الحركات الإسلامية في هذا العصر قامت بإسداء خدمات جليلة في هذه الناحية ، فاحتفظت بقالب الإسلام الفكري والعملي ، فثمة مدارس ومعاهد ومؤسسات تضطلع بواجب الحفاظ على علم الفقه والحديث والتفسير ... وثمة جماعات تنقل صورة العبادات الإسلامية من جيل إلى جيل ، وثمة مطابع ودور للنشر تقوم بطبع القرآن والحديث بصحة كاملة ، فكل هذه الأعمال مفيدة في حد ذاتها ، ولكنها أعمال (حفظ وصيانة) وليس من جوهر عمل الدعوة .

فاما مسألة إحياء الإسلام كدعوة عالمية فلنها لم تتحقق بعد في العصر الحديث ، حتى ليدو أن الناس لا يشعرون بأهمية ذلك ، ولذلك كثيراً ما يسمون غالب الأعمال باسم « الدعوة الإسلامية » وليس لها صلة تصلها بالدعوة الإسلامية من قريب أو بعيد .

فالطريق الوحيد لبدء عمل إسلامي حقيقي في القرن الخامس عشر المجرى هو القضاء على هذا الوضع الذي يسمى كل حركة سياسية في العالم (حركة إسلامية) ...

إننا نشاهد المسلمين في كثير من البلدان يشرون الصريح والأحاداد والقلاقل ضد ولاة الأمور ، فيشنون حركة ضد سلطة (غير إسلامية) في مكان ، ضد (الحكام المسلمين) في مكان آخر .. وتارة يناضلون

نضالاً إسلامياً ، ويعاهدون بأفلامهم وأسلفهم تارة أخرى .. ويعلمون حيناً تحت فلسفة (السياسة الإسلامية) ويتحركون في حين آخر دون فكرة أو فلسفه ، ويختذلون عنواناً قومياً في بلد وعنواناً نظامياً في بلد آخر . ورغم هذه الفروق والاختلافات يتحدون على شيء واحد وهو عدم استخدام الإمكانيات الجديدة للدعوة إلى التوحيد والإذار بالآخرة ، ويستغلون طاقاتهم في الكفاح ضد المتصوم المزعومين بطريقة لا تعود عليهم بفائدة أو خير أو بركة .

والواضح أن المسلمين قاموا بأعمال ذات آثار عكسية في هذا العصر ، لقد أزال الله العظيم السياسية الموضوعة في سبيل الدعوة في عصر العلم حتى يقوم المسلمون بنشر رسالة الله بين عباده ، وينذروا الناس بمحاسب الآخرة ، ويحيطوا أبناء آدم علمًا بالهدف الذي خلقوا لأجله ، وينبئوهم عن يوم الحساب الذي هو آت لا ريب فيه .

ولكن المسلمين لم ينصرفوا إلى هذا الهدف .. بل وضعوا بأنفسهم عظيم سياسية في طريقهم بأسماء جديدة ، فترى أن (الجهاد السياسي) أصبح الشغل الشاغل لكل مسلم ، لكنه مشغول – كل الانشغال – عن (الجهاد الدعوي) .

ومعروف أنه جاء في القرآن أن الله ينصر الذين ينصرونه ، وأن الله يفتح إمكانيات جديدة لدينه في كل عصر .

وعصينا هذا يتضمن أشخاصاً يقولون بإدراك هذه الإشارة ويكونون رهن إشارة السماء ، ولقد أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إشارة السماء ، وكرسوا حياتهم للعمل .. فكانت النتيجة هي ذلك الانقلاب الذي غير مجرى التاريخ الإنساني ..

إن نزول المطر هو – في حد ذاته – عبارة عن إعلان لإرادة الله الصامتة ، حتى يبذر المزارع البذور في الأرض ، فيسخر الله نظام الكون لتأييد هذا العمل ، حتى تعود هذه البذرة في صورة (غلة) وافرة إلى المزارع والمزارع يدرك هذه الإشارة الإلهية ، ويوقف نفسه لتنفيذ هذه الخطة الإلهية فيعود هذا العمل عليه بالمحاصيل الزراعية الوفافية ، وكذلك أحدث الله في هذا العصر فرصاً جديدة تأييداً لدینه بعد عمل دام ألف سنة ، وهذه الفرص هدفها تأييد دعوة التوحيد ونشر الإيمان والشعور بالآخرة .

إن العمل الذي كان يتبعه بتأثير قوة المعجزات وخوارق العادات في الماضي ينبغي أن يتبعه بقوة مؤشرات العلوم الطبيعية في الحاضر .

وإن العمل الذي كان يمارس في جو من العصبية وسيطرة العادات ينبغي أن يمارس الآن في جو من التسامح والتعايش السلمي .

وإن العمل الذي كان يجري فيما مضى بسرعة حيوانية يمكن الآن أن يجري « بسرعة ميكانيكية » ..

إن هذه هي توجيهات الله وهدایاه في هذا العصر في حدود فقهنا البشري إنه أبدع إمكانات جديدة فعلا .. وقد ظلت ولا تزال هذه الإمكانيات تلعن طائفة من عباد الله أن تستغلها حتى تحول إلى حقيقة واقعة .. ولكن القيادات الإسلامية تجاهلت ، أو لم تستطع فهم توجيهات الله ، واستيعاب طاقات العمل الجديد ، واستغلالها ، فأثارت الصراعات السياسية التي قضى الله عليها بعمل استمر ألف سنة ، وبالتالي صيف المسلمين الدعوة بصبغة سياسية وقومية ، وجعلوا من الإسلام خصمأً للحكومات ، ثم قالوا: هذا هو الدين الذي رضى الله به ، واختاره للمسلمين ، فأدى ذلك إلى اشتباكات مع الأمم المدعوة في كل مكان ، وبقيت جميع الإمكانيات غير مستخدمة .

لقد ضيع المسلمون مدة تزيد على قرن ، حتى استيقظ الشيطان وأحل نوعاً جديداً من الشرك اسمه (الشيوعية) يجح في أن يقوم مقام الشرك القديم

وقد ظهرت العقبات في البلدان الشيوعية والسايرة في طريقها ، أمام (الدعوة) ، على النحو الذي كان في الماضي أيام كان الشرك حاكماً ومتربعاً على العرش .. غير أن الفرص لا تزال سانحة حتى الآن في العالم غير الشيوعي ..

• • •

وفي مستهل القرن الخامس عشر الهجري يمكن البدء من جديد ، لاستئناف عمل لم نوفق فيه على امتداد القرن الرابع عشر الهجري حتى في العالم الذي لا يسيطر عليه الشيوعيون ..

إن هذا العمل هو البدء الصادق (بالدعوة) .. فلعلنا نتهر عصر الشرك الجديد (الشيوعية والعلمانية) وأيضاً لعلنا نمشي في الطريق الذي تدفعنا إليه كل المؤشرات الكونية المترجمة للإرادة العليا .. سائرين نحو بناء إنسانية مؤمنة .. وحضارة تعمل للدنيا وترجو الآخرة في سياق واحد.

تم الكتاب والله الموفق

الى السيد رئيس مجلس وزراء
الى رئيس مجلس وزراء
الى رئيس مجلس وزراء

رقم الايداع

٨٤/٥٣١

دار المصحوة للنشر والتوزيع
القاهرة
ش. جمال عبد الناصر
بجوار عمارت المهندسين
حدائق حلوان

قضية هذا الكتاب

هذه هي الترجمة العربية لكتاب « إحياء الإسلام في المنظور » للmfker الإسلامي الهندي الكبير (وحيد الدين خان) الذي عرفه قراء العربية من خلال كتبه الكثيرة التي يقف في قمتها « الإسلام يتحدى » و « الدين في مواجهة العلم » وعندما أوكل إلى العلامة الكبير « وحيد الدين خان » مراجعة الكتاب ، وفوضني في نشره .. رأيت أن الإسم الذي اختاره الأخ المترجم قد يجد بعض الاعتراضات من حيث أن الإسلام في غير حاجة إلى (إحياء) وإنما الذي يحتاج إلى هذا (الإحياء) هم المسلمون أو هي (علوم الدين) و (طرائق عرضه) ، وليس الإسلام نفسه .. فدين الله (الإسلام) كما وصفه أحد المستشرقين « غضن طرى كان عهده بالوجود أمس » ونخلاصاً من مثل هذا الاعتراض رأيت تسميتها « قضية البعث الإسلامي - المنبع والشروط » موكداً أن هذه التسمية تتمتع بالدقة نفسها التي تتمتع بها التسمية السابقة ، وهي تعبر صحيحاً تماماً عن (قضية هذا الكتاب) !!

د. عبد الحليم عويس

جنبه